شعراء الشام

في القرن الثالث

بحث ادبي قدمه الى المجمع العلمي العربي بدمشق

خليل مردم بك

لمناسبة انتخابه عضواً بالمجمع

١٣٤٣ هـ — مطبعة الترقي بدمشق في محلة القيمرية — ١٩٢٥ م

شعراء الشام

— في القرن الثالث —

تمهيد

القرنُ الثالث من أيمن القرون على العربية وآدابها في كل الأقطار التي دخلت في حوزة العرب ، فلقد أزهرت في ذاك القرن حضارةُ اللغة ، وظهر به من الشعراء والمنشئين والأُدباء الأئمةُ العظام ، اماَّ بحثنا هـذا فمداره علىَ أربعةٍ من شعراء الشام هم : العتَّابي ، وابو تمَّام الطـائي ، وديك الجن ، والبحتري · عسانا نتبين منهم طريقةَ شعراء الشام في ذاك القرن ، وما لهم من الخصائص التي تميِّزهم عن غيرهم ، وما هو الأثر الذي أثَّروه في الشعر العربي ·

من خصـائص الشعر العربي أن له رُوحاً اذا تراءت للشاعر استخذى لهـا وملَّكها قيـاده ، وأعني بذلك أنَّ اختلاف أقطار الشعراء لا يكون له أثرٌ بيِّنٌ في أسلوبهم البياني بمقدار ما بين أقطارهم من الفوارق ، فطابع الشعر العربي لا تمحوه طبيعةُ القُطر مهما بعدَ عن قلب الجزيرة ، وانما تزيدهُ وضوحاً او تُلحقُ به بعض

إبهام بحسب طبع الشاعر ، وعِلّةُ ذلك : أن العربَ من أشدِّ الناس ضناً بماضيهم وحنيناً اليه ، فلقد رُوِي عن ابن مقبلِ الشاعرِ — الذي أدرك الجاهلية ومنّ الله عليه بالإسلام وبدّله بالظلمات نوراً وشهِدَ ما صارت اليه العرب من العِزّة — أنه كان يبكي أهلَ الجاهلية . وأخرى : أن شعرَ العرب أصحبه الله تعالى من الرّوعة القدسية ما أصحب دينهم الذي ما دان به جيلٌ من الناس الا اصبحوا أكثر تشدّداً به من أصحابه .

قال الجاحظ : « فضيلةُ الشعرِ مقصورةٌ على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعرُ لا يُستطاع ان يُترْجَمَ ، ولا يجوزُ عليه النقل ، ومتى حُوّلِ تقطّعَ نظمُهُ ، وبَطَلَ وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور ، والكلامُ المنثورُ المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي حُوّل عن موزون الشعر . ثم قال : ولو حُوّلَتْ حكمةُ العرب لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن ، مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا من معانيها شيئاً لم تذكُرْه العجم » .

وقال ابن قتيبة : « ليس لِمتأخِّرِ الشعراء أن يخرجَ عن مذهب المتقدّمين فيَقِفَ على منزلٍ عامرٍ ويبكي عند مُشَيّدِ البُنيان ،

لأَن المتقدِّمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي . او يرحلَ على حمار او بغل فيصفهَا ، لأَن المتقدِّمين رحلوا على الناقة والبعير . أَو يَرِدَ على المياه العذبة الجواري ، لأَن المتقدِّمين وردُوا على الأَواجن الطوامي . أَو يقطعَ الى الممدوح منابتَ النرجس والورد والآس ، لأَن المتقدِّمين جرَوْا على قطع منابت الشيح والحَنوة والعرار».

فماذا عسى تكونُ بعد ذلك خصائصُ شعراء الشام التي تميّزهم عن غيرهم إذا تدبرنا عوامل النسب والبيئة والزمن والموهبة؟

عاش شعراء الشام في قطرٍ إن أعوزتهم به الفصاحةُ رَفَدتهم بها البادية ، وإن عافوا بها جفاء الأعراب ، أَوَوْا الى حضارةٍ زاخرٍ بحرها ، دعْ عنك اعتدال القُطر وجمالَ طبيعتهِ ، وهم بعدُ إما عرب خُلَّص ، او ممن جرى دم العرب في أعراقهم .

قال ابو منصور الثعالبي : « لم يزل شعراءُ عرب الشام أَشعرَ من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ، والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على مَنْ سواهم في الشعر قُرْبُهم من خِطَطِ العرب ، ولا سيما أهلَ الحجاز ، وبُعْدُهم عن بلاد العجم ، وسلامةُ أَلسنتهم من الفساد العارض لألسنة أَهل العراق بمجاورة الفُرْس والنَبَط ومداخلتهم إياهم » .

أَظْهَرُ مزيةٍ في شعراء الشام التثقيفُ ، وأعني به تهذيبَ شعرهم ، فشاعرُهم مهما كان مطبوعاً سريعَ الخاطر ، فانه لا يَرْمي الكلامَ على عواهنه ، ولا يرسله إرسالاً ، بل ينظر في أعقابِ قوافيه ، ويعود عليها بالتنقيح . وقد أشار الى ذلك عَدِيُّ بنِ الرِّقاع أحدُ شعراء بني أُمية ، وكان منزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، قال :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَها ... حتى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَهَا
نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حتى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَها

وكان يطعنُ على شِعرِ كُثَيِّرٍ ويقول: هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قرُّ الشام جَمَدَ وَهَلَكَ .

وقال ابو تمَّام الطائي :

قد ثُقِّفَتْ منه الشآمُ وسهَّلَتْ ... منه الحجازُ ورقَّقَتْهُ المَشْرِقُ

وقال ايضاً يصف قصيدة له :

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ ... سِمطان فيها اللؤلؤُ المكنونُ
أحذاكها صَنَعُ اللسان يَمُدُّه ... جَفْرٌ اذا نَضَبَ الكلامُ مَعينُ
ويُسيءُ بالإحسان ظناً لا كَمَنْ ... هو بابنه وبشعره مفتونُ

وقال البحتري في تهذيب الشعر :

حُجَجٌ تُخْرِسُ الأَلَدَّ بألفا ظٍ فُرادَى كالجوهرِ المعدودِ
ومعانٍ لو فصَّلَتْها القوافي هجَّنَت شعرَ جَرْوَلٍ ولبيدِ
حُزْنَ مُستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنَّبْنَ ظُلْمَةَ التعقيدِ
ورَكِبْنَ اللفظَ القريبَ فادرَكْ نَ به غايةَ المرادِ البعيدِ
كالعذارى غدون في الحُلَلِ البيـ ـضِ إذا رُحْنَ في الخطوط السودِ

وكان البحتري يُلْقي من كل قصيدة يعمَلُها جميعَ ما يرتابُ به فيخرج شعره مهذباً .

فالتثقيفُ إذن خُلُقٌ في شعراء الشام وهو ما أُطلِقَ عليه اسمُ الصَّنعة فيما بعد . ولكنَّ الغرضَ الذي يذهب اليه المثقفُ يختلفُ باختلاف القائل وزمنه ، فقد يذهب الى الجزالة والحُزُونة كأبي تمَّام ، وقد يذهب الى العذوبة والسلاسة كالبحتري ، ولكنَّ التثقيف لاينفكُّ عنهما . وكذلك أكثر شعراء الشام الذين تقدموهما او تأخروا عنهما . سواءٌ أكانوا من شعراء الصَّنعة ام المعاني .

ومن مزايا شُعراء الشام في القرن الثالث توفُّرهم على درس الأدب العربي ، واشتغالُهم بفنونه درساً وتأليفاً ، فلقد ألَّف العتَّابي من الكتب : كتابَ المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتابَ الخيل ، وكتابَ الألفاظ ، وكتاب الأجواد .

وتخرّجَ به في الشعر منصورُ النمريّ الشاعر .

وابو تمّام الطائي كان له من المحفوظات مالا يَلحقُه فيه غيره ، قيل إنه كان يحفظ أربعَ عشرَةَ ألفَ أرجوزة غيرَ القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم أنظِم الشعرَ حتى حَفِظْتُ سبعةَ عشَرَ ديواناً للنساء خاصةً دون الرجال ، وألّفَ من الكتب : كتاب الحماسة ، وكتاب فحول الشعراء ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل ، وكان يميلُ أنْ يدُلَّ في شعره على علمه باللغةِ وكلامِ العرب .

والبحتريُّ ألَّف كتاب الحماسة ، وكتاب معاني الشعر . ولعل هذه المزيّةَ متوارَثةٌ بينهم من قبلِ القرنِ الثالث ، قال عديّ بن الرِّقاع :

وعلمتُ حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدةٍ لكي أزدادها

فيظهر مما تقدمَ أن من مزايا شعراء الشام (التثقيفَ والعلم) فلنبحثْ عن المثَلِ الأعلى الذي انتحَوْهُ في شعرهم بواسطة التثقيف والعلم .

قال صاحب الأغاني في ترجمة ديك الجن : إنه يذهب مذهب الشاميّين في شعره ، فما هو مذهبهم ؟

وقال الثعالبي : « كان الصاحبُ بنُ عبّاد يُعجَبُ بطريقة الشاميين

المُثلَى التي هي طريقة البحتري في الجزاله والعذوبة والفصاحة والسلامة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحدٌ منه عينه غيرُه ، وصار ما جمعهُ فيه على طرف لسانه وفي سنِ قلمهِ فطوراً يحاضرُ به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحلُّه او يورده كما هو في رسائله .

وكان ابو بكر الخوارزميُّ يقول : مافتقَ قلبي وشحذَ فهمي وصقلَ ذهني وأرهفَ حدَّ لساني وبلغَ هذا المبلغَ بي الا تلك الطرائفُ الشاميةُ واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء نفسي» .

ومثلُ هذا الكلام عامٌ منتشرٌ ، فما علينا إلاَّ أنْ نتابعَ البحثَ لعلّنا ننتصف منه .

تبلّج فجرُ القرن الثالث وكان الشعرُ العربي قد أتمَّ طورَ انتقاله النسبي من البداوة الى الحضارة على يد بشّار بن بُردٍ وأصحابهِ ومن مقتضيات الحضارة التنوّقُ في كل شيءٍ فشملَ ذلك التنوّقُ الشعرَ . ونشأ عنه تتبّع البديع ، وكان العتّابي في أوائل القرن الثالث فسلكَ تلك الطريقة وزاد بها على بشّار ، وتلاه ديكُ الجن فأقبل على

الصَّنعة ، وظلَّتْ صنعتهُ سائغةً لصِدْقهِ في شعره ، فانه لم يستجدِ به أحداً بل قصرَهُ على النسيبِ ، ووصفِ الخمر ، ورثاء عشيقته ، وبعض أصدقائه . وفي زمن ديك الجن نبَغَ ابو تمّام الطائيُّ فشُغِفَ بالجزالة ، وغاص على المعاني البعيدةِ ، وانصرف الى الصَّنعة ، وغلا فيها ، حتى عدَّ الإمامَ بها ، وعُرِفَتْ هذه الطريقةُ بمذهبِ ابي تمّام . وأدركَ أبا تمّامٍ ابو عُبادة البحتريُّ ، وهما من قبيلةٍ واحدة فأخذ عنه وحذا حذْوَه في البديع ، ولكن قوة طبعه وعذوبة لفظه أخفَتْ أثرَ الصنعة في شعره .

فهؤلاء الأربعة الذين ظهروا من أوائل القرن الثالث الى أواخره كلُّهم مطبوعٌ على قول الشعر — وان كانوا متفاوتين في ذلك الطبع — وكلُّهم لم يعتمد على طبعِهِ وحده بل عانَى الصَّنعة .

ولأي شيءٍ بذلُوا كلَّ هذه العنايةِ في سبيل اللفظ ؟ علّةُ ذلك مجاراةُ الرأيِ السائدِ ، والتأثُّر بروحِ العصر واليكَ بعضَ الأدلة علَى هذا الزعم :

كانَ دِعبلٌ الشاعرُ معاصراً لأبي تمّام وكان يثلبهُ ويقول : انه سَرُوقٌ للشعر ، فجاءَ بعد موتِ ابي تمّام الى الحسن بنِ وهبٍ فقال له رجلٌ في المجلس : أنتَ الذي تطعن على من يقول :

وأنجدتُم من بعدِ إتهام داركم فيادمعُ أنجِدْني على ساكني نجدِ

فصاح دعبلٌ : أحسَنَ واللهِ وجعل يردِّدُ : (فيادمع أنجدني على ساكني نجد) ثم قال : رحمه الله لو كان ترك لي شيئاً من شعره — لقلتُ إنه اشعرُ الناس . فانظرْ ما فعلَ به الجناسُ ؟ وكيف استلَّ سخيمتهُ ، وأطلقَ لسانه بتقريظ أبي تمّام وبترديد بيته .

والبحتري يقول :

واللفظُ حَلْيُ المعنى وليس يُريـ ـدُكَ الصُّفْرُ حُسْناً يُرِيكَهُ ذَهَبُهْ

وفي كُتُبِ البيان والنقد التي أُلِّفَتْ في القرن الرابع آراء كثيرة تُعظِّمُ من خطرِ اللفظ كثيراً ، ولا نمتري في أنها كانت الآراء السائدةَ في القرن الثالث .

قال ابو هلالٍ العسكريُّ : « وليس الشأنُ في إيراد المعاني ، لأن المعاني يَعرِفها العربي والعجمي والقرَويُّ والبدَوِي ، وإنما هو في جودَةِ اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرةِ طَلاوته ومائه ، مع صحةِ السبك والتركيب ، والخلوِّ من أوَدِ النظم والتأليف ، وليس يُطلبُ من المعنى إلاّ ان يكونَ صوابا ، ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكونَ علَى ما وصفناه من نُعوته التي تقدّمتْ » .

وقال ايضاً : « المعاني مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيدُ للسوقي والنبطي والزنجي ، وانما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها ».

وقال الآمدي في كتاب الموازنة : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسنَ التأتي وقربَ المأخذ واختيارَ الكلام ووضعَ الألفاظ في مواضعها ، وأنْ يوردَ المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله وأنْ تكونَ الاستعاراتُ والتمثيلات لائقةً بما استعيرت له وغيرَ منافرةٍ لمعناه ، فان الكلام لايكتسي البهاء والرونق إلاّ إذا كان بهذا الوصف ، الى ان قال : فإنْ اتفقَ مع هذا معنىً لطيفٌ اوحكمةٌ غريبة اوأدبٌ حسن فذلك زائدٌ في بهاء الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلامُ بنفسه ، واستغنى عما سواه » .

بمثل هذه الآراء وهذه الاعتباراتِ أقبلَ الشعراء على الصنعةِ اللفظية ، ونحن لانتعرضُ الى البحث في كونهم على خطأٍ او صوابٍ في ذلك ، وانما نريد ان نقولَ : هكذا كانت روحُ ذلك العصر ، وهكذا كان النقاد ينظرون الى جودةِ الكلام .

ولا أريد ان أقف بك عند هذا الحد فتظن أن شعراء الشام انصرفوا الى اللفظ ولم يحفلوا بالمعنى ، كلا فهم ليسوا كذلك ، وانما حاولوا أن يبرزوا معانيهم بأروع صورة من صور الجمال اللفظي في المفردات والتراكيب ، ولكن لا مناص من التصريح بانهم لم يلتفتوا الى المعنى بمقدار ما التفتوا الى اللفظ متأثرين بالرأي السائد ، واليك شيئاً منه وان كنت قد وقفت على بعضه عند الكلام على اللفظ :

قال ابو هلال العسكري : « أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب الا اذا أخذه كله او أخذه فافسده وقصر فيه عمن تقدمه .

وقال الآمدي : أما أخذ البحتري بعض معاني ابي تمام فليس بمانع من أن يكون اشعر منه » .

ومع ذلك فشعراء الشام لم يقصروا في معانيهم ، فأبو تمام معدود من أكثر الشعراء المحدثين اختراعاً للمعاني ، والبحتري قل من جاراه في تأليف المعاني وتنسيقها ، وعندي أنه — في دقة وصفه ، وبعد نظره ، وحسن الأداء عما ينفعل به من المشاهد — أشعر بكثير ممن يأتيك بمعنى أبتر — لكنه مخترع . . — وقريب من

البحتري ديكُ الجن والعتّابي .

فمزايا شعراء الشام في القرن الثالث : (التثقيفُ) و (العلمُ) و (الاستقصاء) و (الجزالة) من غير إغراب و (العذوبةُ) و (السلاسة) من غير تخنّث . ومجموعُ ذلك يمكنك أنْ تسميَه مذهَبَ الشاميّين الذين تولّوا زعامةَ الشعر في القرن الثالث ، وتمذهبَ بمذهبهم شعراء بقية الأقطار .

وفي ترجمة كلٍّ من العتّابي والطائي وديكِ الجن والبحتري على حِدَةٍ ما ينهضُ دليلاً على رُجحانِ هذا الزعم ، ويقوم حُجّةً على صِحةِ هذه الدعوى .



العتَّابي

كلثوم بن عمرو العتَّابي وكنيته ابو عمرو يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر أحد أصحاب المعلَّقات ، وأصل العتَّابي من الشام من ارض قنَّسرين وكان يقيم في رأس عين . أدرك بشَّار بن برد وهو حدث وأنشده شعره ، وصحب البرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام القائدين ووفد على الرشيد والمأمون ، وتتلمذ له في الشعر منصور النمري وكان راويته ، وكان محمد بن موسى الضبي راويته ايضاً ، وكاتبه عبد الله بن خراش من أهل الشام معدود من البلغاء ، توفي العتَّابي في حدود العشرين والمائتين وكان تزهَّد .

هو شاعر معدود في الشعراء المقدَّمين وكاتب مترسِّل بليغ وخطيب وأديب مصنّف وله من الكتب : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب في المواعظ والآداب والحكم ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الألفاظ قال ابن النديم : انه طريف ، وكتاب الأجواد ، وله ديوان شعر يدخل في مائة ورقة . ولأحمد

ابن ابى طاهر كتاب في اختيار شعره . وكان العتّابي ممن يعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره .

كل هذه الكتب لم يُبقِ الدهر علَى شيءٍ منها في ما نعلم وليس لدينا ما ينقع الغلة من أخبار الرجل ولم يبق من شعره ونثره الا النزر اليسير مبثوثاً في كتب الأدب فنسترشد الله ونستهديه في التحدث عنه مع قلة المواد .

عاش الرجل بعيداً عن دور الخلفاء التي كانت مهوى أفئدة الشعراء ومنتجعهم ، وكان في طبعه عزوف عن المخالطة وميل الى العزلة ، ويظهر انه قضى شطراً غير قصير من حياته عزباً ، فقد قيل له : لو تزوجت فقال : إني وجدت مكابدة العفة خيراً من الاحتيال لمصلحة العيال ، وكان مستغنياً عن معاشرة الناس بكلب له ، قال محمد بن حرب : رأيت العتّابي ينادم كلباً ، يشرب كأساً ويولغه كأساً ، فكلمته في ذلك فقال : انه يكفُّ عني أذاه ، وأذى سواه ، ويشكر قليلي ، ويحفظ مبيتي ومقيلي ، فهو من بين الحيوان خليلي . قال ابن حرب : فتمنيت ان أكون كلباً لأحوز هذا النعت . ويدل على كونه فقيراً قوله :

إني امرؤٌ هدم الإقتار مأثرتي   واجتاح ما بنت الأيام من خطري

ولكنـــه راضٍ عن فقره وقانع بالذي ناله من ثروة الأدب ، قيل إنه كان جالساً ذات يوم ينظر في كتاب فمرّ به بعض جيرانه فقال ايش ينفع العلم والأدب من لا مال له ؟ فأنشد يقول :

يا قاتل الله أقوامــاً اذا نفقوا ... ذا اللب ينظر في الآداب والحكمِ
قالوا وليس بهم إلا نفاسته ... أنافعٌ ذا من الإقتار والعدم
وليس يدرون أن الحظ ما حرموا ... لحـاهم الله من علم ومن فهم

وقال في الكتب :

لنا ندما ما نمـلُّ حديثهم ... أمينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً وأمراً مسدّدا
بلا علة تُخشى ولا خوف ريبةٍ ... ولا نتقي منهم بناناً ولا يدا
فان قلت هم أحياء لست بكاذبٍ ... وان قلت هم موتى فلست مفنّدا

ودلّ عَلَى أنه كان قصيراً قوله :

نهى ظراف الغواني عن مواصلتي ... ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

وكان ينظر الى أكثر الناس نظره للبهائم ، قال عثمان الورّاق : رأيت العتّابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك ؟ فقلت لا ، قال : فاصـبر حتى

أُعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصَّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار ، فما بقي أحد الا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لي العتّابي : ألم أُخبرك أنهم بقر ؟

أما اتصاله بالرشيد فقد كان بطلب واستدعاء ، روي أنه بلغ الرشيد قصيدة قالها فأُعجب بها فطلب إشخاصه اليه ولذلك خبر غريب يدل على استيحاشه من القدوم على الخليفة ، فقد روي أنه وافى الرشيد وعليه قميص غليظ وفروة وخفٌّ وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل ، وكانت المائدة اذا قدِّمت اليه أخذ منها رقاقةً وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها ، فاذا كان وقت النوم نام على الارض .

وصحب ايضاً البرامكة الذين أُعجبوا بفصاحته كثيراً ، قال خالد البرمكي لولده : إن قدرتم ان تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابي فضلاً عن رسائله وشعره فلن تروا أبداً مثله .

ووفد بعد الرشيد عَلَى المأمون ولكن بعد أن كتب بإشخاصه اليه ، وكان المأمون يجلّه كثيراً ، قال جعفر بن المفضّل : رأيت

العتّابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسنّ ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى أقلّه فنهض فعجبت من ذلك وقلت لبعض الخدم ما أسوأ أدب هذا الشيخ ، فمن هو ؟ قال العتّابي .

ولكنه مع كل ما رأى من الحفاوة والقبول ، وما شهده من مظاهر الحضارة في بغداد وتوفّر أسباب الترف ما زالت نفسه تحنُّ الى العزلة وتقنع بما يسدُّ العوز ، روي أن امرأته لامته وقالت له : هذا منصور النمري قد أخذ الأموال فحلّى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً وانت ههنا كما ترى فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهليةٌ
زوى الفقر عنها كل طرفٍ وتالدِ

رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى
مقلّدة أعناقها بالقلائد

أسرّكِ أني نلت مـا نال جعفرٌ
من العيش أو ما نال يحيي بن خالد

وأن أمير المؤمنين أغصّني
بغصتها بالمشرفات البوارد

رأيت رفيعات الامور مشوبة

بمستودعات في بطون الأساود

دعيني تجئني ميتتي مطمئنة

ولم أتجشم هول تلك الموارد

وقد قيل له : لِمَ لاتقصد السلطان فتخدمه ؟ فقال : لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب ، ولست أدري أي الرجلين انا ، ولست أرجو منه مقدار ما أخاطر به .

أما طريقته في شعره فطريقة التنقيح والتهذيب والتمحيص وتخيُّر الصور الجميلة من الألفاظ الجزلة من غير إغراب ، وهو في المحدثين كالنابغة في الجاهلية — والنابغة منفرد بحسن الديباجة و كثرة الرونق والجزالة وخلوّ شعره من العيوب — ولم يصل العتّابي الى هذه المنزلة الا بعد الدرس الطويل ولا يفسَّر اجتماعه ببشّار بن برد وهو حدث في العراق إلا بالرحلة في طلب الأدب ولقد جرى على سنن بشّار في شعره قالوا : أول من فتق البديع من المحدثين بشّار بن برد وابن هرمة ثم اتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتّابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس .

قيل إن الرجل شاعر مطبوع متصرّف في فنون الشعر واستدلوا على جودة طبعه وعدم تكلُّفه بقوله :

رسل الضمير اليك تترى بالشوق ظالعة وحسرى
متزجيات ما ينين على الوجا من بعد مسرى
ما جفّ للعينين بعدك ياقرير العين مجرى
فاسلم سلمت مبرأً من صبوتي أبداً معرّى
ان الصبابة لم تدع مني سوى عظم مبرّى
ومدامعٍ عبرى على كبدٍ عليك الدهر حرّى

ولئن صحّ هذا المثال على طبعه فقلما يصحُّ في غيره من شعره لأن اشتغاله بالأدب ومعاناته التأليف واقتفاءه الطريقة المتبعة في الشعر وقتئذ جعله لا يقتصر في الاعتماد على طبعه ، فأثر الصنعة ظاهر في أكثر شعره ، وكيف لا يكون ذلك وهو يقول : « الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدّمت منها مؤخَّراً أو اخرت منها مقدّماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حوّل رأس الى موضع يد ، أو يد الى موضع رجل ، لتحوّلت الخلقة وتغيرت الجبلَّة » .

أية صنعة هـذه ? هي صنعة المصور البارع الذي يرسم

الصورة بأبهى مظهر ثم يغشيها من متناسب الألوان ما يزيدها بهجةً وروعةً ثم لا ينسى أن يمدّ لها الظل .

ولكن أتراه قادراً على العمل بشرطه ؟ فاليك مثالاً من شعره الذي يبدو عليه أثر الصنعة الرائعة قال :

وأشعثَ مشتاقٍ رمى في جفونه
غريب الكرى بين الفجاج السباسبِ

أمات الليالي شوقه غير زفرةٍ
تردّد ما بين الحشا والترائب

سحبتُ له ذيل السرى وهو لابسٌ
دجى الليل حتى مجّ ضوء الكواكب

ومن فوق أكوار المطايا لبانةٌ
أحلّ لها أكل الذرى والغوارب

اذا ادّرع الليل انجلى وكأنه
بقية هنديٍّ حسام المضارب

بركبٍ ترى كسر الكرى في جفونهم
وعهد الفيافي في وجوهٍ شواحب

فأيُّ مصور يمثّل ذلك الأشعث المشتاق فوق أكوار المطايا وهو

لابس دجى الليل بركب بدا كسر الكرى في أجفانهم ونطق عهد الفيافي في أوجههم الشاحبة مثل هذا التمثيل ، ولو واتاه ذلك أتراه قادراً على تصوير تلك الزفرة المترددة بين الحشا والترائب وهاتيك اللبانة التي أحيلَ لها أكلُ الذرى والغوارب كما صوّرها العتّابي بأشرف لفظ ؟

وروي أن الشعراء ازدحموا بباب المأمون فقال لهم علي بن صالح : هل فيكم من يحسن ان يقول كما قال اخوكم العتّابي ؟ :

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديس وتطهيرُ
فتَّ المدائح إلا أن ألسننا مستنطقات بما تحوي الضمائرُ

قالوا : لا والله ما منا أحد يحسن أن يقول مثل هذا وانصرفوا .

وقال دعبل : ما حسدت أحداً قط على شعر كما حسدت العتّابي على قوله :

هيبة الإخوان قاطعةٌ لأخي الحاجات عن طلبهْ
فاذا ما هبتَ ذا أملٍ مات ما أمّلت من سببه

ومن شعره قوله في السحاب :

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر من فوقه طبق من تحته طبقُ
تظنه مصمتاً لافتق فيه فإن سالتْ عزاليه قلت الثوب منفتق

ان مسمع الرعد فيه قلت منخرق ٌ   او لألأ البرق فيه قلت محترق

وقوله :

لومٌ يعيذك من سوء تقارفه   أبقى لعرضك من قول يداجيكا
وقد رمى بك في تيهاء مهلكةٍ   من بات يكتمك العيب الذي فيكا

واغتاظ منه الرشيد مرة فطلبه فستره جعفر بن يحيى واستعطف الرشيد عليه فقال فيه :

مازلت في غمرات الموت مطَّرحاً   يضيق عني فسيح الرأي من حيلي
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي   حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

وبلغه ان عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء فقال :

قد كنت أرجو ان تكون نصيري   وعلى الذي يبغي عليَّ ظهيري
وطفقت آمل ما يرجى سيبه   حتى رأيت تعلقي بغرور
فحفرت ُ قبرك ثم قلت دفنته   ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعت مفترياً على الأمل الذي   قد كان يشهد لي عليك بزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر اليه .

هذا النمط من الشعر — شعر النفوس المطمئنة الهادئة التي لم تطمح الى زخرف الدنيا ولم تمقتها لرأي فلسفي ولم يلح عليها حب مبرح — لا يوقظ في نفس سامعه ثورة ولا يطفئ منها جمرة ولكنه صورة متناسقة

تسعد بها العين ، ونغمة هادئة تلذ السمع ، فهو شعر الدرس والتهذيب في التصوُّر والتصوير .

أما رسائله فقد ذكروا أنه كان حسن الاعتذار فيها ، ولكننا لم نقف منها على ما يفسح للبحث مجالاً رحباً يستقيم فيه إبداء الرأي وإنما اطلعنا على رسالتين صغيرتين نقلهما ياقوت في معجم الأُدباء ، قال ومن منثور كلامه :

أما بعد : فانه ما من مستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروه ، ومن انتظر بعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأَيام فرصتها .

وكتب الى آخر : من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك وانحاز الى نواحيك ، لم يخش المطنب في الثناء عليك ان يكون مفرطاً كما لا يأمن ان يكون مفرِّطا ، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط أولى من الإطناب الذي غايته التقصير ومآله الى الحشو .

وروى له القالي رسالة كتبها الى صديق له وهي :

اما بعد : أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك الى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب اليها ، وكنا نعفيها من النجعة استتماماً لزهرتها ، وشفقة

على خضرتها ، وادخاراً لثمرتهـا ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف ، واشتد علينا كلبها ، وغابت قطتها ، وكذبتنا غيومها ، وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك وانا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمي بأنك موضع الرائد ، وانك تغطي عين الحاسد ، والله يعلم أني ما أعدُّك الا في حومة الأهل ، واعلم أن الكريم اذا استحيي من إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ، ولم تظهر همته ، وانا أقول في ذلك :

ظلُّ اليسار على العباس ممدودُ ... وقلبُه أبداً بالبخل معقودُ
ان الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله عللٌ ... زرق العيون عليها أوجهٌ سود
اذا تكرمتَ عن بذل القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود
بثَّ النوال ولا يمنعك قلتُه ... فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود

قال فشاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه ·

وطريقته في ذلك كطريقته في شعره من حيث الصنعة اللفظية ، ومعانيه في شعره أحسن وأوضح منها في هذه الرسائل · نعم من العبث ان يحكم الانسان على ترسله من هذا القدر القليل ، ولكن للعتابي نفسه فقرة تدلنا على الطريقة التي كان يتبعها في رسائله ، قيل له بِمَ قدرت

على البلاغـة ؟ قال بحلِّ معقود الكلام · يريد بنثر النظم ومن ذلك ما كتبه الى صديق له وقد أنكر عليه شيئاً :

إما ان تقر بذنبك فيكون إقرارك حجةً علينا في العفو عنك ، وإلا فطب نفساً بالانتصاف منك فان الشاعر يقول :

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزنا عنه فإنْ جحود الذنب ذنبانِ

وذلك اعتراف منه باستعارة معاني غيره وهي طريقة لو انتفع بهـا العتَّابي فقلما ينتفع بها غيره لأن الوقت الذي يقضيه الإنسان في استظهار الأشعار ليحلَّ معقودها ويكون على ذِكرٍ مما يلائم الغرض الذي اليه يقصد ، لو قضى بعضه في التفكير وترويض النفس على تصيُّد المعاني لكان أجدى عليه ، ولولم يكن العتَّابي واسع العلم بالأدب كثير الرواية للشعر لما استقام له حل المعقود ·

حدثناك عن العتَّابي شاعراً وكاتباً مترسلاً وبقي علينا ان نحدثك عنه خطيباً فقد قال الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتَّابي وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولَّدين » ·

ولكن اين خطبه ؟ وفي اي معنى كان يخطب ؟ لم نطلع على شيءٍ

منها ومع ذلك فإننا نقول إن صفة الخطيب بارزة فيه أكثر من صفة الشاعر والكاتب ، ولعلك تعجب من هذا الزعم ، فأرعني سمعك يزل عجبك .

دخل العتّابي على المأمون فقـال له : يا كلثوم بلغتني وفاتك فساءتني ، ثم بلغتني وفادتك فسرّتني ، فقال له : يا أمير المؤمنين لو قسمت هاتان الكلمتان على أهل الارض لوسعتاها فضلاً وإنعاماً ، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية ولا ينبسط لسواه أمل ، لأنه لا دين إلا بك ولا دنيا إلا معك . فقال له سلني ، فقال : يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال .

ووقف العتّابي بباب المأمون يلتمس الوصول اليه فصادف يحيى ابن أكثم فقال له : استأذن لي على امير المؤمنين ، قال له : لست بحاجبه ، قال العتّابي : فان لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت ، واعلم أن الله عزّ وجلّ جعل في كل شيء زكاة ، وجعل زكاة المال رفد المستعين ، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف ، واعلم ان الله عزّ وجلّ مقبل عليك بالزيادة إن شكرت ، أو التغيير إن كفرت ، وإني لك اليوم أصلح منك لنفسك ، لأني أدعوك الى ازدياد نعمتك وانت تأبى . فقال له يحيى أفعل وكرامة .

وكلّم العتّابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقلّ ، فقال له : وكيف لا يقلُّ ؟ وقد تكنّفني ذلُّ المسئلة ، وحيرة الطلب ، وخوف الرد .

ووجد عليه الرشيد فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن وقال له : يا أمير المؤمنين قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولنعم الصائن لنفسي كنتَ ، لو أعانني عليك الصبر .

وقال له مالك بن طوق : أما ترى عشيرتك — يعني بني تغلب — كيف تدل عليّ وتستطيل وانا أصبر ، فقال العتّابي : أيها الأمير إن عشيرتك من أحسن عشرتك ، وإن عمك من عمك خيره ، وإن قريبك من قرب منك نفعه ، وإن أحب الناس اليك أخفهم ثقلاً عليك .

فقل لي ايها القارئ رعاك الله أليس هذا الأُسلوب من القول أسلوباً خطابياً ، وكيف لا يكون من يرتجل مثل ماسمعت خطيباً مصقعاً ؟ فالعتّابي اذاً خطيب مفوّه شديد العارضة سريع الخاطر لا يتلجلج ولا يتوقف ، وهو لا يقر بالبلاغة الا لمن كان كذلك ، فقد سأله صديق له عن البلاغة فقال : كل ذي كلام أفهمك صاحبه

حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة وما الاستعانة ؟ قال أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه يا هناه ! اسمع مني ، واستمع اليّ ، وافهم ، وألست تفهم ، هذا كله عي وفساد .

ولو أرسل العتَّابي نفسه علَى سجيتها في شعره ورسائله كما كان يرسلها في كلامه لأَتى بالرائع البارع من الشعر والترسل وان كان الذي أتى به غايةً في الحسن .

وبعد فالعتَّابي شاعر بارع ، ومترسل فصيح ، وخطيب مفوّه ، واديب كبير ، ومؤلف محسن ، واستاذ منجب ، وقد جوّد في كل ماعاناه من ذلك ، وقلما اجتمعت هذه الصفات في غيره ، ولعله لو انصرف لواحدة منها لكان بها عبقريا .



ابو تمام الطائي

ابو تمَّام حبيب بن أوس الطائي وُلد بقرية جاسم من بلاد الجيدور من أعمال دمشق سنة (١٩٠) وخدم حائكا وعمل عنده بدمشق و كان أبوه خمَّاراً بها ، ورحل في حداثته الى مصر و كان يسقي الناس ماء بالجرة في المسجد الجامع بها ، ثم جالس الأُدباء فأخذ عنهم وتعلم و كان فطناً فهماً يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى أجاده ، ولكنه لم يحمد مقامه في مصر فإن له قصيدة يتشوق بها الى دمشق و يشكو تقتير الرزق عليه في مصر نروي منها هذه الأبيات :

سقى الرائح الغادي المهجِّرُ بلدةً	سقتني أنفاس الصبابة والخبلِ
فجاد دمشقاً كلها جودَ أهله	بأنفسهم عند الكريهة والبذل
فلم يبقُ في ارض البقاعين بقعةً	وجاد قرى الجولان بالمسبل المطل
بنفسي ارض الشام لاأيمن الحمى	ولاأيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى	لها وطرٌ في ان تمرَّ ولا تحلي
أخمسة أعوام مضت لمغيبه	وشهران بل يومان ثكل على ثكل

توانى وشيك النجح عنه ووكلت ... به عزمات أوقفته على رجل

قضى الدهر مني نحبه يوم فتله ... هواي بإرقال الغريرية الفتل

نأيت فلا مالاً حويت ولم أقم ... فأمنع اذ فجعت بالمال والأهل

بخلتُ على عرضي بما فيه صونه ... رجاء اجتناء الجود من شجر النخل

عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة ... دعتني الى أن أفتح القفل بالقفل

ومن هذه الأبيات يعرف أن مدة إقامته في مصر كانت خمس سنوات قضاها بالضنك ، ولم يسلم من عداوة شعراء مصر فقد ورد في ديوانه قصيدتان يهجو بهما يوسف السراج الشاعر المصري ، ومهما يكن فإن أوليته في الأدب كانت في مصر ومنها سار شعره وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه وقدمه على شعراء وقته ، وجالس في بغداد الأدباء وعاشر العلماء وكانت بعد ذلك حياته القصيرة رحلة طويلة فقد رحل الى مكة حاجاً وله قصيدة في ذلك منها :

وقد أممت بيت الله نضواً ... على عيرانة حرف سعوم

أتيت القادسية وهي ترنو ... اليّ بعين شيطان رجيم

فما بلغت بنا عسفان حتى ... رنت بلحاظ لقمان الحكيم

وذهب الى خراسان مادحاً عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، والى أرمينية مادحاً خالد بن يزيد ، والى بلاد الجبل

مادحاً محمد بن الهيثم ، وزار نيسابور وأبرشهر والموصل وغيرها ، ولا أدلُّ على كثرة أسفاره من قوله :

ما اليوم أول توديعي ولا الثاني — البين أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده — فصار أملك من روحي بجثماني
خليفة الخضر من يربع على وطنٍ — في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداذ الهوى وأنا — بالرقتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت — حتى تشافه بي أقصى خراسان
خلَّفت بالأُفق الغربي لي سكناً — قد كان عيشي به حلواً بحلوان

وقوله ايضاً :

سلي هل عمرتُ القفر وهي سباسبٌ
وغادرت ربعي من ركابي سباسبا
وغرَّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ
وشرَّقت حتى قد نسيت المغاربا

* * *

كان أبو تمّام موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس من ذلك أنه كان يرى الأُدب نسباً ويرى له حقاً واجب الرعاية قال :

وقرابة الآداب تقصر دونها — عند الأديب قرابة الأَرحامِ

وقال في علي بن الجهم الشاعر وقد أراد سفراً :

هي فرقةٌ من صاحب لك ماجدِ ... فغداً إذابة كل دمع جامدِ

فافزع الى ذخر الشؤون وعذبهِ ... فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

وإذا فقدت أخاً فلم تفقد له ... دمعاً ولا صبراً فلست بفاقد

أعلي يا ابن الجهم إنك دفت لي ... سماً وجراً في الزلال البارد

إن يكدِ مطرف الإخاء فإننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذبٌ تحدّر من غمامٍ واحد

أو يفترق نسبٌ يؤلف بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وقال :

أيُّ شيء يكون أحسن من صبٍّ ... أديبٍ متيّمٍ بأديبِ

ومن ذلك قوله يصف سحابة ويمثل فرح الارض بها بفرحة الأديب بالأديب :

لما بدت للارض من قريب ... تشوّقت لوبلها السكوبِ

تشوّق المريض للطبيب ... وطرب المحب للحبيب

وفرحة الأديب بالأديب

وفي أخذه بضبع البحتري وإطرائه له وتقديره إياه أحسن دليل على عطفه على الأدباء وحبه لهم ، وهذا خلق يكبره الإنسان إذا علم أن

التحاسد أظهر ما يكون بين الشعراء .

* * *

وكان ابو تمّام يتولّى عليّاً وآله عليهم السلام وله في ذلك قصيدة منها قوله :

فعلتم بأبناء النبي ورهطه ... أفاعيل أدناها الخيانة والغدرُ
ومن قبله أخلفتمُ لوصيّه ... بداهية دهياء ليس لها قدر
أخوه اذا عُدَّ الفخار وصهره ... فلا مثله أخ ولا مثله صهر
ويوم الغدير استوضح الحقّ اهلهُ ... بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر
أقامَ رسولُ الله يدعوهم بها ... ليقربهم عرف وينآهم نكر
يمدُّ بضبعيه ويعلم أنه ... ولي ومولاكم فهل لكم خبر
فكان لهم جهر بإثبات حقه ... وكان لهم في برهم حقه جهر
جعلت هواي الفاطميين زلفةً ... الى خالقي ما دمت او دام لي عمر
وكوّفني ديني على أن منصبي ... شآم ونجري آيةً ذُكر النجر

ولكنه مع ذلك كان إذا مدح بني العباس أثبت لهم من الحق في الخلافة ما ينتفي معه حق علي وأولاده منها كقوله من قصيدة في الواثق :

فرسان مملكةٍ أسود خلافةٍ ... ظلُّ الهدى غابٌ لهم وعرينُ
قوم غدا الميراث مضروباً لهم ... سور عليه من القُران حصين

فيهم سكينة ربهم وكتــابه ‌ ‌ ‌ ‌ وإمامتــاه واسمه المخزون

وكقوله من قصيدة في المعتصم :

فالأرض دار أقفرت ما لم يكن ‌ ‌ ‌ ‌ من هاشمٍ ربٌّ لتلك الدارِ

سور القرآن الغرّ فيكم أُنزلت ‌ ‌ ‌ ‌ ولكم تصاغ محاسن الأشعار

وكقوله من قصيدة في الواثق :

ورث الخلافة عن أسنته التي ‌ ‌ ‌ ‌ منعت حمى الآباء والاعمـامِ

أخذ الخلافة بالوراثة أهلهـا ‌ ‌ ‌ ‌ وبكل ماضي الشفرتين حسام

فلسورة الأنفال في ميراثه ‌ ‌ ‌ ‌ آثارها ولسورة الأنعـام

لا قدح في عود الخلافة بعد ما ‌ ‌ ‌ ‌ متّت إليك بحرمة وذمام

هيهات تلك قلادة الله التي ‌ ‌ ‌ ‌ ما كان يتركها بغير نظام

إرث النبي وجمرة الملك التي ‌ ‌ ‌ ‌ لم تخل من لهب بكم وضرام

مذخورة أحرزتها بحكومة ‌ ‌ ‌ ‌ لله تشدخ أرؤس الحكّام

لسنا مريدي حجة نشفي بها ‌ ‌ ‌ ‌ من ريبة سقماً من الأسقام

فالصبح مشهور بغير دلائل ‌ ‌ ‌ ‌ من غيره ابتغيت ولا أعلام

فبأي أقواله نأخذ لنعلم أشيعياً متشدداً كان أم من غلاة النواصب ؟ ولكن اذا أمعنا في البحث وجدنا أن قصيدته في الإمام علي قالها في مصر قبل ان يتصل بالخلفاء كما يعلم ذلك من القصيدة

نفسها، فلما وفد على المعتصم كان لا يزال موالياً علياً فمدحه بقصيدة لم يسرف فيها بمدح آل العباس ولم يسلب آل البيت حقهم فقال منها:

آل النبي إذا ما ظلمة طرقت ... كانوا لنا سرجاً انتم لها شعل [(١)]

ثم لما أغدق عليه الخلفاء إعطياتهم أباح لنفسه أن يقول بهم ما سمعت ويجعل الخلافة إرثاً وحقاً لهم نص عليه القرآن وأنزلت به براءة من الرحمن.

ولأبي تمام كما لغيره من الشعراء ضرائب وأشكال من مثل ما سمعت فهو يقول في الافشين والمعتصم راضٍ عنه:

لم يقر هذا السيف هذا الصبر في ... هيجاء الا عز هذا الدين

قد كان عذرة مغرب فافتضها ... بالسيف فحل المشرق الافشين

فسيشكر الإسلام ما أوليته ... والله عنه بالوفاء ضمين

ثم يقول لما قتله المعتصم وحرقه:

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الواري

ناراً يساور جسمه من حرها ... لهب كما عصفرت شق إزار

صلّى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً ويدخلها مع الفجار

---

(١) في تاريخ ابن عساكر: إن أول قصيدة مدح بها ابو تمام المعتصم القصيدة التي منها هذا البيت.

وكذاك أهل النار في الدنيا هم يوم القيامة جلُّ أهل النار

والذنب في مثل هذا الرياء يشترك به المادح والممدوح فإن الخلفاء والملوك لم يرفعوا من قدر الشعر بمقدار ما وضعوا من أخلاق الشعراء .

* * *

قالوا وكان ابو تمَّام أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة وفي ذلك يقول ابن المعذل او أبو العميثل :

يا نبيَّ الله في الشعـ ـر ويا عيسى بن مريم

أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم

وقال صاحب الأغاني : وكان إنشاد ابي تمام قبيحاً وكان له غلام اسمه الفتح اشتراه بثلاثمائة دينار لينشد شعره وكان غلاماً أديباً فصيحاً .

وولَّى الحسن بن وهب ابا تمَّام بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفي بها سنة (٢٣١) قال البحتري : وبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة ، وقال ابن خلكان : رأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان على حافة الخندق والعامَّة تقول هذا قبر تمَّام الشاعر .

ورثاه الحسن بن وهب وابن الزيات وديك الجن والبحتري .

* * *

رزق ابو تمَّام شهرة في حياته وبعد مماته قلَّ ما ظفر بمثلها

شاعر فقد تولّى زعامة الشعر فكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم كما عرض البحتري عليه شعره بحمص إقراراً بإمامته واعترافاً بفضله ، وقد زعم بعضهم أنه ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه . وظلّ المثل الأعلى لأكثر الشعراء أكثر من ألف سنة يتحدون طريقته ويطبعون على غراره ولو أردنا أن ننقل ما قيل فيه من التقريظ والثناء لطال نفس الكلام وأقلّ ذلك أن أبا تمّام والبحتري والمتنبي هم الثلاثة المجمع على تقديمهم والمختلف في ايّهم أشعر .

لا نريد ان نروي آراء الناس في الرجل على علاّتها ولكن نحاول ان نعرف الأسباب التي أهّلته لتبوإ هذه المنزلة .

الأسباب التي كوّنت عظمة أبي تمّام ثلاثة علَى ما نظن : العلم والثقة بالنفس ، والاختراع .

أما علمه : فقد اتفق الرواة علَى أنه كان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره ، قيل إنه كان يحفظ اربع عشرة ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال ، والكتب

التي جمعها تدل على سعة اطلاعة وهي : كتاب الحماسة الذي دلّ على غزارة فضله وإتقان معرفته وحسن اختياره ، وكتاب فحول الشعراء جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل . ولم يكن علمه محصوراً في الشعر وإنما كان مضطلعاً بعلوم العربية حتى ذكره الأنباري في طبقات الادباء النحاة دون غيره من الشعراء الذين عاصروه .

وفي تاريخ ابن عساكر : إنه حدّث عن صهيب بن ابي الصهباء الشاعر والعطاف بن هرون وكرامة بن أبان العدوي وابي عبد الرحمن الأموي وسلامة بن جابر الهندي ومحمد بن خالد الشيباني وروى عنه خالد بن شريد الشاعر والوليد بن عبادة البحتري ومحمد ابن ابراهيم بن عتاب والعبدوي البغدادي .

وأنت إذا نظرت في ديوانه رأيت أثر العلم بادياً فيه كإيراد أمثال العرب (١) وذكر قبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأبطالهم وفرسانهم وأجوادهم وحكمائهم وشعرائهم وكالإلماع الى تاريخ الفرس (٢) ولا

---

(١) كقوله :

ألا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من إحدى بلي

(٢) كقوله :

بل كان كالضحاك في سطواته بالعالمين وأنت أفريدونُ

تعدم في الديوان العثور على الإشارات النحوية (١) والاصطلاحات العلمية كالخصوص والعموم (٢) وسيرد في معانيه المخترعة مسألة من مسائل الدور في الفقه .

وقال ابو عبد الله الرقي : رأيت من ابي تمام رجلاً عقله وعلمه فوق شعره ، وقال الآمدي : كان ابو تمام مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية وإن العلم في شعره أظهر وإنه أتى في شعره بمعان فلسفية .

وأما ثقته بنفسه : فقد كان يرى أن المتأخر يدرك شأو المتقدم وأن الشعر صوب العقول فكما أن العقل لم يقصر على زمن دون زمن فكذلك الشعر قال :

يقول من تقرع أسماعه   كم ترك الأول للآخر

وقال :

فلو كان يفنى الشعرُ أفناه ما قرت
حياضك منه في العصور الذواهب

(١) كقوله :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها   كتلاعب الأفعال بالاسماء

(٢) كقوله :

لن ينال العلى خصوصاً من الفتـ   ـيان من لم يكن نداه عموما

ولكنه صوب العقول اذا انجلت
سحائب منه أُعقبت بسحائب

وربما قادته هذه الثقة الى الإعجاب الشديد بنفسه قال ابو هلال العسكري : كان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً و كان ابو تمّام لا يفعل هذا الفعل و كان يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير . وقال صاحب الأغاني: روي عن بعض الشعراء أَن أبا تمَّام أُنشده قصيدة له أحسن في جميعها إِلا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمَّام لو أَلقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فقال له : انا والله أَعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أَولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه فهو وإِن أَحب الفاضل لم يبغض الناقص وإِن هوي بقاء المتقدّم لم يهو موت المتأخّر . وقال له رجل لم لا تقول من الشعر ما يُفهم ؟ فقال له وأَنت لم لا تفهم من الشعر ما يُقال ؟

وهو بعد يرى نفسه أَشعر الثقلين قال يخاطب ناقته في حجة حجّها :

أَقول لها وقد أَوحت بعين — إِليّ تشكّي الدنف السقيم
يكورك أَشعر الثقلين طرّاً — وأَوفى الناس في حسب صميم

وأما اختراعه : فقد عدَّه صاحب العمدة أكثر الشعراء المولّدين إختراعاً فقال : أكثر المولّدين معاني وتوليداً فيما ذكره العلماء ابو تمَّام ، وقال في موضع آخر : أكثر المولّدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق ابو تمَّام وابن الرومي ، وكان ابن الرومي يقول : ابو تمّام يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تمَّ له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها ، وسئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمَّام فقال : كان أغوص على المعاني وانا أقوم بعمود الشعر .

وقال الآمدي : وجدت أهل البصرة من أصحاب البحتري ومن يقدِّم مطبوع الشعر دون متكلَّفه لا يدفعون ابا تمَّام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب والاستنباط لها ، وإن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة وإنه إذا لاح له معنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو قوي .

وقال صاحب الأغاني : ابو تمَّام لطيف الفطنة دقيق المعاني غوّاص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره .

وقال صاحب المثل السائر : قد قيل إن أبا تمَّام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عدّت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى فمن ذلك قوله :

يا أيها الملك النائي برؤيته　　　وجوده لمراعي جوده كثبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً　　　إن السماء ترجّى حين تحتجب

وقوله :

رأينا الجود فيك وما عرضنا　　　لسجلٍ منه بعد ولا ذنوبِ
ولكن دارة القمر استتمت　　　فدلّتنا على مطر قريب (١)

وقوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ　　　طويت أتاح لها لسان حسودِ
لو لا اشتعال النار فيما جاورت　　　ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله :

لا تنكروا ضربي له مَن دونه　　　مثلاً شروداً في الندى والباسِ
فالله قد ضرب الأقل لنوره　　　مثلاً من المشكاة والنبراس

وقوله :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى
فالسيل حربٌ للمكان العالي

وقوله في الشيب :

شعلة في المفارق استودعتني　　　في صميم الفؤاد ثكلا صميما

---

(١) نقل بعد هذين البيتين بيتين لم نستحسن نقلهما .

يستثير الهموم ما اكتنّ منها صعداً وهي تستثير الهموما

قال ابن الأثير: فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تفقّه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور وهذا من إغراب ابي تمّام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فإنا لم نستقصها ههنا.

وذكر صاحب العمدة من معانيه المخترعة قوله:

بني مالك قد نبّهت خامل الثرى قبورٌ لكم مستشرفات المعالمِ
غوامض قيد الكف من متناولٍ وفيها علاً لا يرتقى بالسلالمِ

وقوله:

يأبى على التصريد الا نائلاً إن لم يكن محضاً قراحاً يمذقِ
نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فأرة المسك التي لم تفتقِ

* * *

كان ابو تمّام مع غزارة علمه وثقته بنفسه وقوة اختراعه نسيج وحده في جزالة الألفاظ وشدة أسر الشعر وحسن الديباجة وكرمها يؤثر الصنعة كثيراً وهو صاحب مذهب في البديع عرف به وإن كان غيره سبقه إليه وقال القليل منه ولكن ابا تمّام التزمه في كل شعره وجعله ركن الشعر وعموده ومن أجله حجر على نفسه واسعاً وألزمها ما لا يلزم.

ومن عجيب ولعه بالصنعة أنه أقام شطر بيت فيه طباقٌ

حسن مقام النسب ، قال الفتح غلام ابي تمّام ، سألت مولاي ابا تمّام عن نسب دعبل فقال هو دعبل بن علي الذي يقول :

« ضحك المشيب برأسه فبكى »

يحاول ابو تمّام ان يطبق مذهبه في البديع على كل بيت من شعره بل على كل كلمة وفي ذلك من الأخذ بالشدة مالا مزيد عليه ، سمعه اسحق الموصلي ينشد شعراً له فقال له : « ياهذا لقد شققت على نفسك إن الشعر لأقرب مما تظن » .

وما أعجب لشيء كعجبي لهذا الرجل كيف تمكن من الإجادة مع هذا الاستقصاء في البديع فهو كمن يريد ان يبني هرماً من أرجل النمل او ينقش صورة الأقاليم على فص خاتم .

وأعجب من ذلك أن هذه العناية باللفظ لم تصرفه عن العناية بالمعنى فقد كان يغوص على المستصعب منه كما مرّ بك .

بلغ ابو تمّام ذروة الشعر ولكن سلك إليها طريقاً وعراً صعب المسالك ماسلكه أحد من الشعراء بعده وبلغ مبلغه ، ولقد أحسن المتنبي لما أعجزه هذا الطريق فتحول عنه الى غيره فأتى بما ملأ الدنيا وشغل الناس .

ولو لم يكن البحتري سيد المطبوعين على قول الشعر لما حدّثته

نفسه بتحدّي ابي تمّام على أنه وإن مال الى الصنعة في شعره فالطبع فيه أبين وأظهر ·

نعم انا لا أنكر ان ابا تمّام صاحب مذهب في الشعر ولكن مذهبه علَى إحكامه شاقٌ يعجز أتباعه عن اتباع قواعده وأحكامه كما سُنّت ، فصاحبه أشبه بناسك غلا في الزهد والتقشف والأخذ بالعزائم فأكبره مريدوه ولكنهم عجزوا عن مجاراته فانصرف عنه بعضهم وأكثر من بقي حوله كان زهده رياء ونفاقا وكذلك حالُ الشعراء بعد ابي تمّام ·

فلا عجب إذا تعب ابو تمّام في شعره ووجد شدة في قرضه — ومذهبه في اللفظ وغوصه على المعنى كما علمت — فقد روي عنه أنه كان فيه إبطاء بقول الشعر ، وقال صاحب العمدة: كان ابو تمّام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره ، وحكى بعض أصحاب ابي تمّام قال استأذنت عليه فدخلت في بيت مصهرج قد غسل بالماء فوجدته يتقلب يمينا وشمالا ، فقلت لقد بلغ بك الحر مبلغا شديدا ، قال لا ولكن غيره ، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال فقال الآن أردت ثم استمدّ وكتب شيئا لا أعرفه ، ثم قال أتدري ماكنت فيه منذ الآن

قلت كلا قال قول ابي نواس :

« كالدهر فيه شراسة وليانُ »

أردت معناه فشمس عليَّ حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرستَ بل لنتَ بل قانيتَ ذاك بذا

فأنت لاشك فيك السهل والجبلُ

قال صاحب العمدة : ولعمري لو سكت هذا الحاكي لنمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت لأن الكلفة فيه ظاهرة والتعمل بيّن .

ولابي تمَّام فصل في قرض الشعر ينم علَى شدة اهتمامه ومبلغ تنوقه ، قال البحتري : كنت في حداثتي أروم الشعر وكنت أرجع فيه إلى طبع ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت ابا تمَّام فانقطعت فيه إليه واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : يا ابا عبادة ! تخَيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، فان أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق، وإذا أخذت في مدح سيد ذي

أيادي فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرّف مقامه ، ونقاض المعاني واحذر المجهول منها وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى .

زعم صاحب الأغاني أن ابا تمام شاعر مطبوع ولعل لديه دليلا على ذلك لم نهتد اليه ، فابو تمام على مانعلم لايجوز أن يعد مع المطبوعين كجرير وابي نواس وأشجع السلمي والبحتري وهبه مطبوعا فان الحدود التي أخذ بها نفسه كفيلة بتعطيل قوة الطبع وإخفاء أثره ، فأنت إذا استعرضت شعره لم تجد أثر الطبع شائعا فيه بل وجدت عناء الصانع المستقصي الذي يجهد نفسه كثيراً لينال غاية الإحسان . ولعلّ صاحب الأغاني يعني بالطبع المقدرة على إجادة الشعر سواء أتكلف الشاعر أم لم يتكلف .

كانت روايته الواسعة لأشعار العرب تحمله على إيثار الجزالة في اللفظ ، وكانت ثقته بنفسه تخوله الإمعان في فنون البديع والتوسع في

الاستعارة على غير مناهج العرب حتى قيل إن شعره استعارة و بديع ، قال صاحب الوساطة :

« كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمّام ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي وتبعه أكثر المحدثين بعده فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة والتقصير والإصابة »

قالوا ومن رديء الاستعارة قوله :

« حتى انقته بكيمياء السؤددِ »

وقوله :

كلوا الصبر مرّاً واشربوه فإنكم

أثرتم بعير الظلم والظلم باركُ

نحن لا ندرأ هذا و كثيراً مثله عن أبي تمام كما إننا نعترف بأن له من الجيّد ما لا يتعلق به غيره ، ولكننا نرى أن المركب الصعب الذي ركبه كثيراً ما مال به إلى التعقيد والتوعير والغموض والخروج عن المألوف فلقد سمع أعرابي قصيدته التي أولها :

« طلل الجميع لقد عفوتَ حميدا »

فقال إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها فإما أن

يكون قائلها أشعر الناس وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه .

لا جدال في أن أبا تمَّام كان يؤثر الصنعة اللفظية وهو القائل :

(يروقك بيت الشعر حين يُصرَّع)

ولكن الذي جعله يغلو بها هو روح العصر السائدة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يتهافتون على الصنعة ولا تواتيهم كما تواتي أبا تمَّام ، جاء دِعبل الشاعر الى الحسن ابن وهب بعد موت أبي تمّام فقال له رجل في المجلس أنت الذي تطعن على من يقول :

وأنجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجدِ

فصاح دعبل أحسنَ والله وجعل يردّد (فيا دمع أنجدني على ساكني نجد) ثم قال : رحمه الله لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس . ودعبل هذا كان يثلب أبا تمّام ويقول إنه سروق للشعر ، فانظر ما فعل به الجناس وكيف استلّ سخيمته وأطلق لسانه بترديده ، ولو قال أبو تمّام «فيا دمع ساعدني على ساكني نجد» أتظن دعبلاً يصيح بغير الشتيمة ؟

* * *

وأحسنُ شعر أبي تمّام ما كان في الرثاء وله في المديح ، آيات سئل البحتري عنه فقال : مدّاحة نوّاحة . ومن مراثيه قوله يرثي ابنين صغيرين لعبد الله بن طاهر :

نجمان شاء الله أن لا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

إن الفجيعة بالرياض نواضراً ... لأجلّ منها بالرياض ذوابلا

لهفي على تلك الشواهد فيهما ... لو أمهلت حتى تكون شمائلا

لغدا سكونهما حجىً وصباهما ... حلماً وتلك الأريحية نائلا

إن الهلال إذا رأيت نموّه ... أيقنت أن سيكون بدراً كاملا

وقصائده في هذا الباب مشهورة منها التي أولها :

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا ... وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

والتي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

وقال في أخ له قد حضر وفاته :

لله مقلته والموت يكسرها ... كأن أجفانه سكرى من الوسنِ

يردّ أنفاسه كرهاً وتعطفها ... يد المنية عطف الريح للغصن

ياهول ما أبصرت عيني وما سمعت ... أذني فلا أبصرت عيني ولا أذني

لم يبق من بدني جزء علمت به ... إلا وقد حلّه جزء من الحزن

فأنت تحسّ في رثائه نفساً تسيل أسى وتجيد التفجع ، ولقد يرثي من لاتعطفه عليه عواطف الحنان فيبكيك ويشجيك كالثكلى حين تندب وحيدها ، فتسائل نفسك أكان ابو تمّام صادقاً في كل

مراثيه وهل حزن حقيقة على كل من رثاه ؟ وانا أجيب كلاً فربما رثى من كانت حياته وموته عنده سيّان ، ولكن ابا تمّام من أُولئك الناس الذين صحب الحزن نفوسهم وأُشرب قلوبهم ، فقد كان يتخذ من موت الميت سبباً ليعرب عن أحزان نفسه ، وينفث بعض ما يعتلج في صدره من البث ، ويصور منظراً من كآبته — لا على الميت فإن ذلك كائن قبل موته — ، وقد يلتوي فهم ذلك إلا على من بلاه او ابتلي به ٠ وأية نفس تشعر بالشجى أكثر من نفس ابي تمّام وهو القائل وقد سمع مغنية تغني بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها

وأما مديحه فليس ذلك المبتذل المعاد الذي اعتاد أكثر الشعراء ترديده فإن له في هذا الباب معاني طريفةً نادرة كقوله :

فلو صوّرتَ نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباعِ

وقوله :

هو البحر من أيِّ النواحي أتيته فلجّته المعروفُ والجودُ ساحلُهْ
تعوّد بسط الكف حتى لو انّه ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفّهِ غير روحه لجاد بها فليتّقِ الله سائله

وقوله :

لو ان إجماعنا في وصف سؤدده   في الدين لم يختلف في الأُمة اثنانِ

ولم يقصر في الأدب والحكمة فكثير من شعره جرى مجرى الأمثال كقوله:

أولى البرية حقاً أن تراعيه   عند السرور الذي آساك في الحزنِ

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقوله :

وطول مقام المرء في الحيِّ مخلقٌ   لديباجتيه فاغترب تتجدّدِ

فإني رأيت الشمس زيدت محبةً   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقوله :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ

ويكدي الفتى في دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى

هلكن إذن من جهلهنّ البهائمُ

ومثل ذلك كثير في شعره لا محل لاستقصائه هنا .

أما غزله فهو أعجب ما في شعره وهو في نظرنا يقسم الى قسمين: قسم صدّر به قصائده وجعله توطئةً لأغراضه كالمديح والفخر والوصف علَى طريقة العرب وهو غزل مصنوع متكلف وعر الألفاظ

لاتهش له النفس ، وقسم لم يجعله توطئة لشيء بل هو غزل خالص ، ولم يرسل نفسه على سجيتها في كل شعره كما أرسلها في هذا القسم فلا تكاد تجد به أثراً للجزالة والمتانة بل هو سهل لين ولكنه والحق يقال لا يلتئم باجزاء النفس كقوله :

زفراتٌ مقلقاتُ	أسعدتها العبراتُ
وعويلٌ من غليلٍ	أضرمته الحسرات
ونحيبٌ ووجيبٌ	ودموعٌ مسبلات
وتباريح اشتياقٍ	وهمومٌ طارقات
وفؤادٌ مستهامٌ	جننته الوجنات
وفتورٌ من فتورٍ	أورثته اللحظات
وحبيبٌ صدَّ لما	كثرت فيه الوشاة

وهو إذا أراد أن يستعطف حبيبه أو يستلين قلبه أو يناديه لم يجد وسيلة غير الأنبياء فقد قال :

يا سميَّ الذي تبهَّل يدعو	ربه مخلصاً له في قل أوحي
ومكنىً تتوق نفسي اليه	بالرسول الكريم بعد المسيح
أفصح اليوم ناظرا مستهامٍ	نطقا عن ضمير قلب قريح

وقال :

يا سميّ النبيِّ في سورة الجن ويا ثاني العزيز بمصرِ

وقال أيضاً :

يا سميّ النبي حين يسمى والذي خص بالجمال وعما

واذا ترفع عن مثل هذا السفساف نال :

قسمتْ لي وقاسمتني بسلطا نٍ من السحر مقلتا عبدوسِ

فالقسيم القسام عن لحظات منهما يختلسن حب النفوس

فالذي قاسمت محظ إذا الليل تمطّى من الكرى المنفوس

قال علي بن عبد العزيز الجرجاني : « ولست أدري يشهد الله كيف تصوّر له ان يتغزّل وينسب وأي حبيب يستعطف بالفلسفة وكيف يتسع قلب عبدوس هـذا وهو غلام غر وحدث مترف لاستخراج العويص وإظهار المعمى » .

فأين ذاك النمط الذي تراه في قصيدته التي أولها :

« السيف أصدق إنباءً من الكتبِ »

من هذه السخافة الدالة عَلَى أن ابا تمّام لم يعشق ولم يعرف الحب والذي قاله من الغزل لم يكن الباعث عليه إلا قليل من المجون الجاف كقوله :

خمشتني بكفهـا وأشارت بطرفها

فتأملت وجهها واتقتني بكفها

ليت نصفي على الفرا — ش لحافٌ لنصفها

فأنال الذي أريد — على رغم أنفها

وفي الأغاني قصة مجونية وقعت بين ابي تمّام و بين الحسن بن وهب قال بها ابو تمّام قصيدة أولها :

ابا عليٍّ لصرف الدهر والغِيَر — وللحوادث والأيام والعِبَرِ

وشعره في الوصف والفخر والهجاء خير من شعره في الغزل .

ومن الكتب المؤلفة في شعر ابي تمّام وأخباره : كتاب الموازنة للآمدي ، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمّام له أيضاً ، وكتاب تفسير شعر ابي تمّام لمحمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة ٣٧٠ ، وكتاب أخبار ابي تمّام والمختار من شعره لعلي بن محمد الشمشاطي من أدباء القرن الرابع ، وكتاب شرح شعر ابي تمّام لأبي الريحاني البيروني لم يتمه . ذكر ذلك ياقوت الرومي في معجم الأدباء عند ترجمة كلٍّ من أصحاب هذه الكتب ، ولم يطبع منها غير كتاب الموازنة .

ولأبي العلاء المعري كتاب سماه ذكرى حبيب شرح به ديوان ابي تمّام ، ولأبي بكر الصولي كتاب في أخبار ابي تمّام .

ديك الجن

أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم ، وديك الجن لقب غلب عليه (١) وجده تميم من أهل مؤتة وهو أول من أسلم من أجداده على يد حبيب بن مسلمة الفهري أخذ محاربا ، وحبيب بن عبد الله بن رغبان المذكور في هذا النسب كان كاتباً في أيام الخليفة المنصور وكان يتقلد الإعطاء واليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام وهو مولى حبيب بن مسلمة الفهري .

ولد ديك الجن في حمص سنة إحدى وستين ومائة وعاش بضعاً وسبعين سنة وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وكان شديد التشيُّع والعصبية على العرب يقول : « ما للعرب علينا فضل جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم وأسلمنا كما أسلموا ومن قتل منهم رجلاً منا قتل به ولم نجد الله

---

(١) لم أجد من ذكر السبب في تلقيبه بديك الجن وقد زعم الدميري نقلاً عن القزويني أن « ديك الجن دويبة توجد في البساتين إذا ألقيت في خمر عتيق وتركت في محارة ودفنت وسط الدار لا يرى فيها شيء من الأرضة » ولعله لقب بديك الجن لكثرة خروجه الى البساتين ومعاقرته الخمرة .

فضلهم علينا إذ جمعنا الدين » وكان يتشيع تشيعاً حسناً وله مراثٍ كثيرة في الحسين كان بعضها مشهوراً عند الخاص والعام يناح به .
قال صاحب الأغاني : كان خطيب أهل حمص يصلي على النبي على المنبر ثلاث مرات في خطبته وكان أهل حمص كلهم من اليمن لم يكن فيهم من مضر إلا ثلاثة أبيات فتعصبوا على الإمام وعزلوه فقال ديك الجن :

سمعوا الصلاة على النبي توالى ... فتفرقوا شيعاً وقالوا لا لا

ثم استمر على الصلاة إمامهم ... فتحزبوا ورمى الرجال رجالا

يا آل حمص توقعوا من عارها ... خزياً يحل عليكم ووبالا

شاهت وجوهكم وجوهاً طالما ... رغمت معاطسها وساءت حالا

ولعله أحد الشعوبيين الذين اتخذوا التشيع وسيلة للنيل من العرب، لامذهباً يرجع إلى عقيدة وإيمان ، إذ كيف نتفق سلامة إيمانه مع قوله :

أأترك لذة الصهباء نقداً ... لما وعدوه من لبنٍ وخمرِ

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ ... حديث خرافةٍ يا أم عمرو

سكن ديك الجن حمص ولم يبرح نواحي الشام ولا وفد الى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد إلا ما كان من صحبته

لأحمدَ وجعفر ابني علي الهاشميين وهي إلى الصداقة أقرب منها الى الاستجداء ، وكان خليعاً ماجناً منعكفاً عَلَى القصف واللهو متلافاً لما ورث عن آبائه واكتسب بشعره من أحمد وعلي الهاشميين ،

قال :

تمتَّعْ من الدنيا فإنك فانِ ... وإنك في أيدي الحوادث عانِ
ولا تُنظرنَّ اليوم لهواً الى غدٍ ... ومن لغدٍ من حادثٍ بأمان
فإني رأيت الدهر يُسرع بالفتى ... وينقله حالين تختلفان
فأما الذي يمضي فأحلام نائمٍ ... وأما الذي يبقى له فأماني

وكان يجتمع عنده المُجَّان وأهل الخلاعة وكان له ابن عم يكنى ابا الطيب يعظه وينهاه عما يفعله ويحول بينه وبين ما يؤثر من لذاته وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمُجَّان وأهل الخلاعة فيستخف بهم وبه فلما كثر ذلك على ديك الجن قال :

يا عجباً من ابي الخبيث ومن ... سروجه في البكائر الدثره
يحمل رأساً تنبو المعاول عن ... صفحته والجلامد الوعره
كم طرباتٍ أفسدتهن وكم ... صفوة عيشٍ غادرتها كدره
وكم إذا مارأوك ياملك المو — ... ت لهم من أنامل خصره
وكم لهم دعوة عليك وكم ... قذفه أمٍ شنعاء مشتهره

كريمةٌ لومك استخفَّ بهـا دنالهـا بالمثالب الأشره

سبحان من يمسك السماء على الار — ض وفيها أخلاقك المذره

وكان قد اشتهر بجارية نصرانية من أهل حمص هويها وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به فلما اشتهر بها دعاها الا الإسلام ليتزوج بها فأجابته وكان اسمها ورداً ثم افترى ابو الطيب على هـذه الجاربة وأذاع أنها تهوى غلاماً لديك الجن واحتال عليه وأغراه بقتلها فقتلها وقال في ذلك :

ليتني لم أكن لعطفكِ نلتُ وإلى ذلك الوصال وصلتُ

فالذي مـني اشتملت عليه ألعارِ ما قد عليه اشتملت

قال ذو الجهل قد حلمت ولا — أعلم أني حلمت حتى جهلت

لائم لي بجهـله ولمـاذا انا وحدي أحببت ثم قتلت

سوف آسى طول الحياة وأبكي — ك على مافعلتِ لامافعلتُ

وقال فيها ايضاً :

لك نفس مؤاتـيه والمنـايا معـاديه

أيُّها القلب لاتعـد لهوى البيض ثانيه

ليس برقٌ يكون أخ — لب من برق غانيـه

خنتِ سرّي ولم أخنـ — كِ فموتي علانيـه

وقال ايضاً :

قل لمن كان وجهه كضياء الشـ — ـمس في حسنه وبدر منير
كنت زين الأحياء إذ كنت فيهم ولقد صرت زين أهل القبور
بأبي انت في الحياة وفي المو — ت وتحت الثرى ويوم النشور
خنتني في المغيب والخون نكرٌ وذميمٌ في سالفات الدهور
فشفاني سيفي وأسرع في حز — التراقي قطعاً وحز النحور

ثم لما بلغه الخبر على حقيقته وصحته ندم ومكث شهراً لا يستفيق من من البكاء ولا يطعم من الطعام الا ما يقيم رمقه وقال في ندمه على قتلها :

ياطلعةً طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
روّيت من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
حكّمتُ سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيءٌ أعزُّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننتُ على العيون بحسنها وأنفتُ من نظر الحسود إليها

ولقد استنفدت هذه الواقعة شعره فنظم كثيراً من المراثي حتى صار من المعدودين في إجادة الرثاء قال صاحب العمدة : « ابو تمام من

المعدودين في إجادة الرثاء ومثله ديك الجن وهو أشهر في هذا من حبيب وله فيه طريق أنفرد بها » .

* * *

وهو بعد شاعر مجيد يذهب مذهب ابي تمّام والشاميين في شعره كما قال صاحب الأغاني ، ولقد كان في زمانه شاعر الشام الى أن ظهر ابو تمّام فلم يذكر معه إلا مجازا ، وديك الجن أقدم منه وقد كان ابو تمّام أخذ عنه أمثلةً من شعره يحتذي عليها فهو أستاذه ، وقول صاحب الأغاني إنه يذهب مذهب ابي تمّام يحمل على اشتهار ابي تمّام بذلك المذهب بعد أن غلا فيه . قال عبد الله بن محمد ابن عبد الملك الزبيدي : كنت جالساً عند ديك الجن فدخل عليه حدَثٌ فأنشده شعراً عمله فأخرج ديك الجن من تحت مصلاّه درجاً كبيراً فيه كثيرٌ من شعره فسلّمه إليه وقال يافتى تكسب بهذا واستعن به علَى قولك فلما خرج سألته عنه فقال هذا فتى من أهل جاسم يذكر أنه من طيئ يكنى ابا تمّام واسمه حبيب بن أوس وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع ، وعمرّ ديك الجن الى أن مات ابو تمّام ورثاه .

قصر ديك الجن شعره على نفسه وهو الخليع المتهتك فتارة يصف الخمر ويقول :

بها غير معدول فداوِ خمارهـا ... وصل بجبالات الغبوق ابتكارَها

ونل من عظيم الوزر كل عظيمةٍ ... إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغرٍ ... ولا تسق إلا خمرها وعقارها

فقام تكاد الكأس تحرق كفه ... من الشمس أو من وجنتيه استعارها

ظللنا بأيدينا نتعتع روحها ... فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

مورّدة من كفّ ظبيٍ كأنما ... تناولها من خدّه فأدارها(١)

وتارة يتغزل بعشيقته ورد فيقول :

أُنظر إلى شمس القصور وبدرها ... وإلى خزاماها وبهجة زهرها

لم تبك عينك أبيضاً في أسودٍ ... جمع الجمال كوجهها في شعرها

وردية الوجنات يختبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرهـا

وتمـايلت فضحكت من أردافها ... عجباً ولكنني بكيت لخصرها

تسقيك كأس مدامةٍ من كفها ... ورديةً ومدامةً من ثغرهـا

---

(١) روي أن ابا نواس لما اجتاز بحمص قاصداً مصر سمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً أن يظهر لابي نواس أنه قاصر بالنسبة اليه ، فقصده ابو نواس في داره وهو بها فطرق الباب واستأذن عليه فقالت الجـارية ليس هو ههنا ، فعرف مقصده فقال لها قولي له اخرج فقد فتنت أهل العراق بقولك :

مورّدة من كفّ ظبيٍ كأنما ... تناولهـا من خدّه فأدارها

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج اليه واجتمع به وأضافه .

ولا ينسى أن يداعب غرانقا من أهل حمص يقال له بكر بمقطوعات لا نرى روايتها لما بها من المجون ، وإنما نروي منها ثلاثة أبيات قالها فيه وقد جلسا يوماً يتحدثان إلى أن غاب القمر :

دع البدر فليغرب فأنت لنا بدرُ ... إذا ما تجلّى من محاسنك الفجرُ

إذا ما انقضى سحر الذين ببابلٍ ... فطرفك لي سحرٌ وريقك لي خمر

ولو قيل لي قم فادع أحسن من ترى ... لصحت بأعلى الصوت يابكر يابكر

ومن ملحه في الخلاعة قوله :

لما نظرت إليَّ عن حدق المها ... وبسمت عن متفتح النوّارِ

وعقدت بين قضيب بانٍ أهيفٍ ... وكثيب رملٍ عقدة الزنار

عفرت خدي في الثرى لك طائعاً ... وعزمت فيك على دخول النار

هكذا كانت حياته فإذا أعسر واستنزفت الخمرة ماله رحل من حمص إلى أحمد وجعفر الهاشميين في سلمية يستعين بهما على دهره ثم يعود إلى شنشنته في حمص . ولما قتل عشيقته رثاها برثاءٍ تصرّف بها أحسن تصرّف كقوله :

أشفقت أن يرد الزمان بغدره ... أو أبتلى بعد الوصال بهجره

قمرٌ أنا استخرجته من دجنه ... لبليّتي وجلوته من خدره

فقتلته وله عليَّ كرامةٌ ... ملء الحشى وله الفؤاد بأسره

عهدي به ميتاً كأحسن نائمٍ والحزن يسفح عبرتي في نحره
لو كان يدري الميت ما ذا بعده بالحيِّ منه بكى له في قبره
غصصٌ تكاد تفيظ منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

وقوله :

بأبي نبذتك بالعراء المقفرِ وسترت وجهك بالتراب الأعفرِ
بأبي بذلتك بعد صونٍ للبلى ورجعت عنك صبرت أم لم أصبر
لو كنت أقدر أن أرى أثر البلى لتركت وجهك ضاحياً لم يقبر

وقوله :

أما آن للطيف أن يأتيا وأن يطرق الوطن الدانيا
وإني لأحسب ريب الزما — ن يتركني جسداً باليا
سأشكر ذلك لا ناسياً جميل الصفاء ولا قاليا
وقد كنت أشكره ضاحكاً فقد صرت أشكره باكيا

وقوله :

جاءت تزور فراشي بعد ما قبرت فظلت ألثم نحراً زانه الجيدُ
وقلت قرَّة عيني قد بعثت لنا فكيف ذا وطريق القبر مسدود
قالت هناك عظامي فيه مودعةٌ تعيث فيها بنات الأرض والدود
وهذه الروح قد جاءتك زائرةً هذي زيارة من في القبر ملحود

وهذا شعر علم الله يستعبر له السامع . وله قصيدة يرثي بها جعفر بن علي الهاشمي وهي جيدة منها قوله :

فيا قبره جد كل قبر بجوده ... ففيك سماء ثرة وسحائب
فإنك لو تدري بما فيك من علا ... علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخاً كنت أبكيه دماً وهو نائم ... حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الأجر واقف ... ولا أنا في عمر إلى الله راغب
أأسعى لأحظى فيك بالأجر إنه ... لسعي إذن مني لدى الله خائب
وما الإثم إلا الصبر عنك وإنما ... عواقب حمد أن تذم العواقب
يقولون مقدار على المرء واجب ... فقلت وإعوال على المرء واجب
هو القلب لما حم يوم ابن أمه ... وهى جانب منه وأسقم جانب
فوالله إخلاصاً من القول صادقاً ... وإلا فحبي آل احمد كاذب
لوان دمي كانت شفاؤك اودمي ؟ ... دم القلب حتى يقضب القلب قاضب
لسلمت تسليم الرضا وتخذتها ... يداً المردى ما حج لله راكب
فتى كان مثل السيف من حيث جئته ... لنائبة نابتك فهو مضارب
بكاك أخ لم تحوه بقرابة ... بلى إن إخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها ... كأنك للدنيا أخ ومناسب

فذق هذا الكلام من حيث شئت هل تجد فيه إلا حلاوة ، وأعمل

فكرك هل تجد إلا معنى شريفا ولفظا شريفا وحسن تصرُّفٍ بهما .

هذه نبذة من شعره في الخمر والغزل والرثاء ولم نقف على شيءٍ في المديح وإنما روى له صاحب الأغاني قصيدة يعزّي بها جعفر بن علي سلك بها طريق الجاهليين منها :

نغفل والأيام لاتغفلُ	ولا لنا من زمنٍ موئلُ
والدهر لايسلم من صرفه	أعصم في القنة مستوعل
ولاحباب صلتان السرى	أرقم لايعرف ما تجهل
ولا عقنباة السلامى لها	في كل أفقٍ علق مهمل
فتخاء في الجو خدارية	كالغيم والغيم لها منقل
آمن من كان لصرف الردى	أنزلها من جوها منزل

وهي كما ترى عبارة عن رأي بدوي جاف لايهتدي الى عزاء عن الفجائع الا أن الدهر لايسلم من صرفه الأعصم والأرقم والفتخاء وفي ذلك دليل على أن الشاعر يكبو فيما لايوافق هواه، وأنى له — وهو الخليع الماجن — ان يقيم نفسه مقام من يعظ ويخفف المصايب ، لذلك فشعر ديك الجن فيما يوافق هواه جزل منسجم وصنعته اللفظية أخف على النفس من صنعة ابي تمام لانها مع حسنها لاتجد للكلفة أثراً ظاهراً عليها فقد كان مقتصداً فيها ، وتشبيهاته واستعاراته حسنة سائغة كقوله :

لا ومكان الصليب في النحر منـ ـك ومجرى الزنار في الخصرِ
والخال في الخد اذ أُشبهه وردة مسك على ثرى تبرِ
وحاجبٍ مدّ خطه قلم الحسـ ـن بحبر البهاء لا الحبرِ
وأقحوانٍ بفيك منتظمٍ على شبيه من رائق الخمرِ

ومعانيه حسنة لاسيما ما كان في الرثاء فأكثرها شريف نادر ·



البحتري

أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ينتسب إلى بحتر بن عتود وهو بطن من طيء، والبحتري يفتخر بهذا النسب ويقول:

ذهبتْ طيءٌ بسـابقة المجـ ـد على العالمين بأساً وجودا

نحن أبناءُ يعربٍ أعربُ النا ـس لساناً وأنضر الناس عودا

ولد بمنبج سنة ست ومائتين وبها نشأ وتخرّج وتأدب ويدل عَلَى أن بيته قديم في منبج قوله:

جدِّيَ الذي رفع الأذان بمنبجٍ وأقام فيهـا قبلة الصلواتِ

وأبي أبو حيّان قائد طيءٍ للروم تحت لوائه المنصـات

ووليُّ فتح الجسر اذ أغرى به عمروٌ وفاعل تلكم الفعلات

وأول شعر قاله في غلام اسمه شقران إذ انفق للبحتري سفر فخرج فيه فأطال الغيبة ثم عاد وقد التحى شقران فقال:

نبتتْ لحيـة شقرا ـن شقيق الروح بعدي

حلقتْ كيف أتته قبل أن ينجز وعدي

ولم ينبه ذكره إلا بعد اتصـاله بابي تمّام الطائي وخروجه إلى

العراق حيث مدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء ، قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي : رأيت البحتري عندنا قبل أن يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه ·

قال البحتري أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاق صبٌّ من هوىً فأُفيقا   أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فسرّ بها ابو سعيد وقال أحسنت والله يا فتى وأجدت ، قال وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبتُه ركبتَه ، فأقبل عليّ ثم قال يا فتى أما تستحيي مني هذا شعر لي تنتحله وتنشده بحضرتي ، فقال له أبو سعيد أحقاً تقول ، قال نعم وإنما علقه مني فسبقني بهِ إليك وزاد فيه ، ثم اندفع وأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شككني علم الله في نفسي وبقيت متحيراً ، فأقبل عليّ أبو سعيد فقال يا فتى قد كان في قرابتك لنا وودك لنا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف له بكل محرّجة من الأيمان أن الشعر لي ما سبقني اليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد وقطع بي

حتى تمنيت أني سخت في الأرض فقمت منكسر البال أجرُّ رجليَّ فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردُّوني ، فأقبل عليَّ الرجل فقال : الشعر لك يا بنيّ والله ما قلته قط ولا سمعته إلا منك ولكني ظننت أنك تهاونت موضعي فأقدمت على الإنشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتي وتكاثرني حتى عرّفني الأمير نسبك وموضعك ولوددت أن لا تلد أبداً طائيــة إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك ودعاني ابو تمّام وضمني إليه وعانقني وأقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به .

وروي عن البحتري أنه قال : كان أوّل أمري في الشعر ونباهتي أني صرت الى أبي تمّام وهو بحمص فعرضت عليه شعري وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم فأقبل عليّ وترك سائر من حضر فلما تفرقوا قال لي أنت أشعر من أنشدني ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلّة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لي بالحذق بالشعر وشفع لي إليهم وقال امتدحهم ، فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ووظفوا لي أربعة آلاف درهم فكان أول مال أصبته . قال صاحب الأغاني وكانت نسخة كتابه : يصل كتابي هذا على يد

الوليد بن عبيد الطائي وهو على بذاذته شاعر فأكرموه ·

عظم مقام البحتري بعد أن رحل إلى العراق وأدناه المتوكل وقد رافقه في سفره إلى دمشق قال في ذلك :

قد رحلنا عن العر — اق وعن قطبها النكد
حبذا العيش في دمشـ — ق إذا ليلها برد
سفرٌ جدّدت لنا الله — هو أيامه الجدد
عزم الله للخليـ — فة فيه على الرشد

واتّصل أيضاً بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ومدح بعد المتوكل جماعة من الخلفاء منهم المنتصر والمستعين والمهتدي والمعتز وكثيراً من الوزراء والرؤساء فأثرى وفاض كسبه من الشعر حتى كان يركب في موكب من عبيده وفي نباهة ذكره يقول :

إن أبق أو أهلك فقد نلت التي ملأت صدور أقاربي وعداتي
وغنيت ندمان الخلائف نابهاً ذكري وناعمةً بهم نشواتي
وشفعت في الأمر الجليل إليهم بعد الجليل فأنجحوا طلباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم من رفد طلاّبٍ وفك عناة

عاد الى الشام في آخر عمره وتوفي بمنبج بداء السكتة سنة اربع وثمانين ومائتين وترك ثروة طائلة ظلت في أولاده مدة طويله

وربما كانت من الأسباب التي جعلتهم من الرؤساء ، فمن أحفاده أبو عبادة بن يحي بن الوليد وأخوه عبيد الله كانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتنبي ، وذكر ياقوت في معجم البلدان أن للبحتري في منبج أملاكاً وذكر في المشترك أيضا أن قرية على باب منبج ذات بساتين هي وقف عَلَى ولده .

كان البحتري يطمح لجمع المال ولا يرضى بالقعود على الفاقة وفي ذلك يقول :

ليس الزمــان بمعتبي فذريني ۝ أرمي تجهم خطبــه بجبيني
وَخذُ القلاص يردُّني لكِ بالغنى ۝ في بعض ذا التطواف أو يرديني
والرزق لليقظ المشيَّع رأيــه ۝ بالعزم لا للعــاجز المأفون

ويقول أيضاً :

وأَحبُّ آفاق البلاد إِلى الفتى ۝ ارضٌ ينال بها كريم المطلبِ

ومثلة قوله :

رأيت القعود على الاقتصاد ۝ قنوعاً به ذلةً في العبــاد
وعز بذي أدبٍ أَن يضيق ۝ بعيشته وسع هذي البـلاد
إِذا ما الأديب ارتضى بالخمول ۝ فما الحظ في الأَدب المستفاد

وكان لايقنع بالقليل من المال وفي ذلك يقول لأَحد ممدوحيه :

لا تقلل اذا اهممت بجدوى　　إن شر الأعداد عندي القليلُ

ولقد رأيت أن أول ما اشتكى الى ابي تمّام الحلة وذاك دليل على كرهه للفقر وحبه للمال ، ولقد ساقه حب المال الى البخل بل الشح بكل شيء ولازمه هذا الخلق طول عمره بالرغم من غناه وإثرائه ، وله في جمع المال والضن به نوادر غريبة ، منها أنه كان له غلام رومي اسمه نسيم قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد أن يصيّره الى ملك بعض أهل المروآت ومن ينفق عنده الأدب فإذا حصل في ملكه شبَّب به وتشوّقه ومدح مولاه حتى يهبه له كقوله من قصيدة :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد　　أظن نسيماً قارف الهم من بعدي

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه　　فيا عجباً للدهر فقد على فقد

فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

ومما يروى عنه في البخل أنه كان له أخٌ وغلام معه في داره فكان يضنيهما جوعاً فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان فيرمي اليهما بثمن أقواتهما ويقول : كلا أجاع الله أكبادكما وأعرى أجلادكما وأطال اجتهادكما .

وقال أحدهم : دخلت على البحتري يوماً فاحتبسني عنده ودعا

بطعام له ودعاني فامتنعت من أكله وكان عنده شيخ شامي لا أعرفه فدعاه الى الطعام فتقدم وأكل بعنف فغاظه ذلك ، ثم إنه التفت إليّ وقال لي أتعرف هذا الشيخ قلت لا قال هذا الشيخ من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنو الهجيم قبيلةٌ ملعونةٌ   حصُّ اللحى متشابهو الألوان

لو يسمعون بأكلةٍ أوشربةٍ   بعمان أصبح جمعهم بعمان

قال فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك .

ولم يسلم البحتري من مجاراة ميوله وأهوائه شأن أكثرالشعراء فقد كان يعاقر الخمرة ويميل الى الدعابة وتميل به الصبوة .

روي أنه استهدى محمد بن علي القمي نبيذا فبعث اليه نبيذاً مع غلام له أمرد فخمشه البحتري فغضب الغلام غضباً شديداً دلّ البحتري على أنه سيخبر مولاه بما جرى فكتب اليه :

أبا جعفر كان تخميشنا   غلامك إحدى الهنات الدنيَّة

بعثت الينا بشمس المدام   تضيءُ لنا مع شمس البرية

فليت الهدية كان الرسول   وليت الرسول الينا الهدية

فبعث اليه محمد بن علي الغلام هدية .

ولقد أحب علوة بنت زرعة الحلبية وأكثر من التشبيب بها

كقوله :

هل دين علوة يستطاع فيقتضي   أو ظلم علوة يستفيق فيقصر

وقوله :

عرّج على حاب فخيّ محلة   مأنوسة فيها لعلوة منزل

وقوله :

تناءت دار علوة بعد قرب   فهل ركب يبلّغها السلاما

وقوله :

وما أنس لا أنس عهد الشبا — ب وعلوة إذ عيّرتني الكبر

وقوله :

عهد لعلوة باللوى قد أشكلا   ما كان أحسن مبتداه وأجملا

وقوله :

أرى خلقاً حبي لعلوة دائماً   إذا لم يدم بالعاشقين التخلّق

وقوله :

فأقلا في علوة اللوم إني   زائد في الغرام إن لم تقلا

وقوله :

أحب إلينا بدار علوة من   بطياس والمشرفات من أكمه

وقوله :

أتخشى زيال علوة أو هجـ ـرانها والمحب خاش جنانهْ

وقوله :

لعلوة في هذا الفؤاد محلة تجانفتُ عن سعدي بها وسعادِ

وقوله :

طيفٌ لعلوة ما ينفك يأتيني يصبو إليَّ على بعد ويصبيني

وقوله :

وقد وردت أهواؤهن فؤاده ولا حبَّ إلا حب علوة فارطُهْ

وكان في أخلاقه الحنين إلى وطنه والمحافظة على وداد أحبابه فقد أكثر من ذكر ربوع صباه وصبوته والتشوق اليها .

كقوله :

وقد حاولت أن تخد المطايا إلى حيٍّ على حلب حلولِ

وقوله :

كم نظرة لي حيال الشام لو وصلت روت غليل فؤادٍ منك ملتاحِ

وقوله :

حنَّت ركابي بالعراق وشاقها في ناجرٍ برد الشآم وريفهُ

وقوله :

ولي بين القصور الى قويقٍ أَليف أصطفيه ويصطفيني

وقوله :

أَشيم سحاب الغرب هل ركن دوشنٍ　　أو المنكفا من بانقوسا مهابطهْ

وقوله :

يا برق أسفر عن قويق فطرَّتي　　حلب فأعلى القصر من بطياسِ

وقوله :

يا ليلتي بالقصر من بطياسِ　　ومعرَّسي بالقصر بل أعراسي

وقوله :

شاقني بالعراق برقٌ كليلُ　　ودعاني للشام شوقٌ دخيلُ

وقوله :

واشترائي العراق خطةُ غبنٍ　　بعد بيعي الشآم بيعة وكسِ

كما اكثر من ذكر المتوكل والفتح بن خاقان والتوجع عليهما بعد قتلهما ولم يمنعه من ذلك صولة الخليفة المنتصر الذي كان له يد في قتلهما .

قال يرثي المتوكل ويعرّض بابنه المنتصر الذي قتله :

حرامٌ عليَّ الراح بعدك أو أرى　　دماً بدمٍ يجري على الأرض مائرُهْ

وهل أرتجي أن يطلب الدم واترٌ　　يدَ الدهر والموتور بالدم واتره

أكان وليُّ العهد أضمر غدره　　فمن عجبٍ أن وُليَ العهدَ غادره

وكان يقول : من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح .

ومن غريب مايروى عنه أنه كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلةً ، ومن أقبح الناس إنشاداً يتشادق ويتزاور في مشيته مرة جانباً ومرة القهقرى ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنتُ والله ثم يقبل على المستمعين ويقول مالكم لاتقولون أحسنت ، هذا والله مما لايحسن أحد ان يقول مثله .

وديوان شعره جمعه ابو بكر الصولي ورتّبه على حروف المعجم وكان لعهده لم يزل غير مرتَّب ، وجمعه أيضاً علي بن حمزه الأصبهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع ، وقد شرح ديوانه ابو العلاء المعري وسماه عبث الوليد ، وشرحه أيضاً محمد بن إسحق الزوزني المتوفى سنة (٤٦٣) قال ياقوت الرومي : إنه شرح ملئ علما وحشي فهما ، ولعلي بن حمزة البيهقي المتوفى سنة (٥٦٥) شرح شعر البحتري وابي تمّام ، وللحسن بن بشر الآمدي كتاب معاني شعر البحتري .

وللبحتري غير ديوان شعره كتاب سماه الحماسة على مثال حماسة ابي تمام الطائي وهو كتاب جليل جمع فيه طائفة كبيرة مما اختاره

من الشعر ورتّبه ترتيباً حسناً ، وله أيضاً كتاب معاني الشعر .

ومن الكتب التي أُلِفت في البحتري : كتاب الموازنة بينه وبين ابي تمّام الطائي للآمدي ، وكتاب سرقات البحتري من ابي تمّام لأحمد بن ابي طاهر المتوفى سنة (٢٨٠) ، وكتاب سرقات البحتري من ابي تمّام لبشر بن يحيى النصيبي .

هذا ما أردنا روايته من أخبار البحتري وآثاره وقد آن لنا بعد ذلك أَن نتكلم عن شعره .

***

لا أعلم إذا كان في شعراء العرب من هو أَطبع على قول الشعر من البحتري ، فهو الشاعر حقاً بحسه وخوالجه ووجداناته وأسلوبه وألفاظه وتراكيبه وقوافيه ، سئل أَبو العلاء المعري : مَن أشعر الثلاثة أبو تمّام أم البحتري أم المتنبي ؟ فقال : أَبو تمّام والمتنبي حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري ، ويروى هذا القول عن المتنبي نفسه .

لا ندّعي أن له صنعة أَبي تمّام ولا معاني ابن الرومي ولا أمثال المتنبي ولا تشبيهات ابن المعتز ولا فلسفة المعري ، كلاّ بل هو نفسه لا يدّعي ذلك بعد أن قال :

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يُلغى عن صدقة كذبُهْ
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمحٌ تكفي إشارته وليس بالهذر طوِّلت خطبه

فانظر كيف يرى أن الشعر لمحٌ للأشياء ببصر نافذ، وإشارةٌ عنها ببيان بالغ، لا تقديم المقدمات، واستنتاج النتائج، وتأصيل الأصول، وتفريع الفروع، فقد يكون الشاعر شاعراً وهو غير حكيم أو فيلسوف.

يقولون إن البحتري لم يأت بمعانٍ مخترعة ولا بأساليب مبتكرة، وكأن الشعر لا يكون إلا بذلك، ولقد جلّ خطبه إن لم يكن إلا كذلك، معانٍ مخترعة وأساليب مبتكرة، أمعن أيها الشاعر بها ولو أتيت بما لا يتصوّره إنسان ولا تفهمه عنك الجان.

ليس البحتري في شيءٌ من هذا وإنما ينظر الى الأشياء نظر الشاعر ويتأثر بها تأثر الشاعر ثم يترجم عنها ترجمة الشاعر ولا يحمل نفسه على إبراز معانيه كألاعيب الصبيان الممسوخة المموّهة بشتّى الألوان من بعدٍ في الاستعارة وإغراب في التشبيه وإغراق في البديع وإحالة في المعنى كي يقال معانٍ مخترعة وأساليب مبتكرة.

إن كان الشعر بنفوذ النظر وقوة الملاحظة وتوقّد الفكرة وصدق

الحس وروعة البيان فالبحتري هو الشاعر حقاً .

خذ أيّ قصيدة شئت من قصائده في الوصف وانظر كيف يصوّر لك المشاهد صورة ناطقة ، يصور لك الماء ويسمعك خريره ، والطير ويسمعك هديله ، والشجر ويريك تمايل أغصانه ، والقصور بما فيها من مرأى ومسمع ، والأطلال وعزيف الأرواح بها ، وموكب الخليفة وما به من حركة وسكون وروعة وجلالة ، وإذا أتى على وصف الطيف وكثيراً ما يأتي مثّل لك حلو الأحلام وأحاسن المنى بألفاظ عذبة رشيقة .

وماذا عساني أن آتي بدليل على ما أقول وديوان شعره أشهر من أن ينوّه به أو يُدلّ عليه ، فاقرأ إذا شئت قصائده في وصف إيوان كسرى ، والبركة ، وخروج المتوكل يوم عيد الفطر ، ووصف قصور الخلفاء كالجعفري والفرد والصبيح والمليح والكامل ، ووصف الأسد والذئب والفرس .

قال ابن المعتز : لو لم يكن للبحتري إلاّ قصيدته السينية في وصف إيوان كسرى ، — فليس للعرب سينية مثلها — وقصيدته في وصف البركة ، لكان أشعر الناس في زمانه .

وإليك بعض أبيات من تلك القصيدة في الإيوان :

وهو ينبيك عن عجائب قوم   لا يُشاب البيان فيهم بلَبس

فإذا ما رأيتَ صورة أنطا ـ   كية ارتعتَ بين روم وفرس

والمنايا مواثلٌ وأنوشر ـ   وان يزجي الصفوف تحت الدِّرَفس

في اخضرارٍ من اللباس على أصـ   ـفر يختال في صبيغة ورس

وعراكُ الرجال بين يديه   في خفوتٍ منهم وإغماض جرس

من مُشيحٍ يهوي بعامل رمحٍ   ومُليحٍ من السنان بترس

تصف العين أنهم جِدُّ أحيا ـ   ءٍ لهم بينهم إشارة خرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى   تتقرّاهمُ يدايَ بلمس

ومنها:

عكستْ حظه الليالي وبات الـ   ـمشتري فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدي تجلُّداً وعليه   كلكلٌ من كلاكل الدهر مرسي

لم يعبه ان بزَّ من بسط الديـ   ـباج واستلَّ من ستور الدمقس

مشمخرٌّ تعلو له شرفاتٌ   رفعت في رؤوس رضوى وقدس

لابساتٌ من البياض فما تبـ   ـصر منها إلا فلائل برس

ليس يدري أصنع إنسٍ لجنٍّ   سكنوه أم صنع جنٍّ لإنس

غير أني أراه يشهد أنْ لم   يك بانيه في الملوك بنكس

فكأني أرى المراتب والقو ـ   م إذا ما بلغتُ آخر حسي

وكأن الوفود ضاحين حسرى … من وقوف خلف الزحام وخنس

وكأن القيان وسط المقاصيـ … ـر يرجّعن بين حُوّ ولُعْس

وكأن اللقاء اول من أمـ … ـس ووشك الفراق أول امس

عُمِرت للسرور دهراً فصارت … للتعزّي رباعهم والتأسي

فلها أن أُعينها بدموع … موقفات على الصبابة حبس

ذاك عندي وليست الدار داري … باقتراب منها ولا الجنس جنسي

وقال يصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً … من الحسن حتى كاد أن يتكلّما

وقد نبّه النوروز في غلس الدجى … أوائل وردٍ كنّ بالأمس نوّما

يفتّقها برد الندى فكأنه … يبثّ حديثاً كان قبل مكتّما

ومن شجر كان الربيع لباسه … عليه كما نشّرت وشياً منمنما

أحلّ فأبدى للعيون بشاشةً … وكان قذىً للعين إذ كان محرما

ورقّ نسيم الريح حتى حسبته … يجيءُ بأنفاس الأحبة نُعّما

فما يحبس الراح التي أنت خلها … وما يمنع الأوتار أن تترنّما

أما نسيبه فنسيب عاشق غزل يعرف كيف يبعث الرحمة والعطف في قلب حبيبه حينما يصف ما يكابده من التشوق بطريقة تشجي السامع وتثير به نشوة الطرب وتترجم عن قلب كل محب كقوله :

عذيري فيكِ من لاحٍ إذا ما   شكوت الحب حرّقني ملاما
فلا وأبيكِ ما ضيعتُ حلماً   ولا قارفتُ في حبيكِ ذاما
ألام على هواكِ وليس عدلاً   اذا أحببتُ مثلكِ ان ألاما
لقد حرّمت من وصلي حلالاً   وقد حللت من هجري حراما
أعيدي فيّ نظرة مستثيبٍ   توخّى الأجر أو كره الأثاما
تري كبداً محرّقةً وعيناً   مؤرّقةً وقلباً مستهاما
تناءت دار علوة بعد قربٍ   فهل ركبٌ يبلّغها السلاما
وجدّد طيفها عتباً علينا   فما يعتادنا إلا لماما
وربّت ليلةٍ قد بتُّ أسقى   بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثماً واعتناقاً   وأفنيناه ضماً والتزاما
وقد علمت بأني لم أضيّع   لها عهداً ولم أخفر ذماما
لئن أضحت محلّتنا عراقاً   مشرّقةً وحلتها شآما
فلم أحدث لها إلا وداداً   ولم أزدد بها إلا غراما

وقوله:

أعيذكِ أن تمنّي بشكوى صبابةٍ   وإن أكسبتنا منكِ عطفاً على الصبِّ
ويحزنني أن تعرفي الحب بالجوى   ولو نفعتنا منكِ معرفة الحب

وله في ذكر الطيف الجيد البارع كقوله:

يعزُّ علىَ الواشين — لو يعلمونها — ليالٍ لنا نزداد فيها ونلتقي
فكم غلةٍ للشوق أطفأْت حرها بطيفٍ متى يطرق دجى الليل يطرق
أضمُّ عليه جفن عيني تعلقاً به عند إجلاء النعاس المرنَّق

وقوله:

اذا ما الكرى أهدى إليَّ خيالَهُ شفى قربهُ التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يديَّ انتباهةٌ عددت حبيباً راح مني أو غدا
ولم أرَ مثلينا ولا مثل شأننا نُعذَّب أيقاظاً وننعم هُجَّدا

ومن شعره الجيِّد البالغ قوله:

وفرسانِ هيجاء تجيش صدورها بأحقادها حتى تضيق دروعها
تقتّل من وترٍ أعز نفوسها عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤُها تذكَّرت القربى ففاضت دموعها
شواجر أَرماحٍ تقطِّع بينهم شواجر أَرحامٍ ملومٍ قطوعها

وله من السهل المطمع كثير كقوله:

أيُّها العاتب الذي ليس يرضى نم هنيئاً فلست أطعم غمضا
إن لي من هواك وجداً قد استهـ ـلك نومي ومضجعاً قد أقضَّا
فجفوني في عبرةٍ ليس ترقا وفؤادي في لوعةٍ ما تقضَّى
يا قليل الإنصاف كم أقتضي عنـ ـدك وعداً إنجازه ليس يقضى

فأجزني بالوصل إن كان أجراً — وأثبني بالحب إن كان قرضا
بأبي شادنٌ تعلّق قلبي — بجفونٍ فواتر اللحظ مرضى
غرّني حبه فأصبحت أبدي — منه بعضاً وأكتم الناس بعضا
لستُ أنساه بادياً من قريبٍ — يتثنى تثني الغصن غضّا
واعتذاري إليه حتى تجافى — لي عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقي تفاح خديه تقبيـ — ـلاً ولثماً طوراً وشمّاً وعضّا

وطريقته في شعره طريقة المطبوعين لا يعتني كثيراً بالابتداآت ولا يلتفت الى التخلص . فقد ترى في قصائده مطلعاً غير بالغ في الجودة أتى به عفواً وكلما تماديت في قراءة القصيدة وجدت الكلام يجود ، وبينا تراه ينسب بعلوة إذا هو يثب الى الغرض الذي قصد له القصيدة من مدح أو وصف أو فخر وثباً واقتضاباً كقوله :

إني وان جانبتُ بعض بطالتي — وتوهّم الواشون أني مقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى — ويروقني ورد الخدود الأحمر
الله مكّن للخليفة جعفر — ملكاً يحسّنه الخليفة جعفر

وكذلك أكثر شعره وقلّما تجد به ما يسمونه التخلص .

وأسلوبه عربي خالص علَى تنوع الأغراض التي قصدها في شعره ، وألفاظه متزاوجة : الكلمة واختها مع الجزالة والعذوبة كقوله :

تطيب بمسراها البلاد إذا سرت فينم ريّاها ويصفو نسيمها

وقوله :

ضاق صدري بما أجـ ـنُّ وقلبي بما أجد

وقوله :

لقد اصطفى رب السما ء له الخلائق والشيم

وهو مع طبعه الفائق تجد في شعره رائحة الصنعة التي أخذها عن ابي تمّام كقوله وفيه التجنيس :

صدق الغراب لقد رأيت حمولهم بالأمس تغرب عن جوانب غُرَّبِ

وقوله وفيه المطابقة :

إن أيامه من البيض بيضٌ ما رأين المفارق السود سودا

وقوله وفيه التوشيح :

فليس الذي حلَّلته بمحلَّلٍ وليس الذي حرَّمته بحرامِ

وقوله وفيه المؤتلف والمختلف :

بحلٍّ وعقدٍ وجزمٍ وفصلٍ ونبلٍ وبذلٍ وبأسٍ وجودِ

الى غير ذلك من الأنواع .

وكان يلقي من كل قصيـدة جميع ما يرتاب به نخرج شعره مهذّباً ، قال عبد القاهر الجرجاني : « إنك لا تكاد تجد شاعراً

يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ، وردّ البعيد الغريب الى المألوف القريب ، ما يعطي البحتري ويبلغ في هذا مبلغه ، فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك إعناق القارح المذلّل ، وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع »

وإذا أردت أن تعلم مبلغ شاعرية البحتري فاعمد الى نثر شعره تجد أنك لا تحتاج الى التقديم والتأخير والنقص والزيادة كقوله :

نطلب الأكثر في الدنيا وقد   نبلغ الحاجة فيها بالأقل

وقوله :

أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها   فما الغافل المغرور فيها بعاقل
يرجّي الخلود معشرٌ ضلّ سعيهم   ودون الذي يبغون غول الغوائل
إذا ما حريز القوم بات وما له   من الله واقٍ فهو بادي المقاتل

فإذا ما نثرت ذلك لم تزد في ألفاظه شيئاً .

وهو مع حسن تصرّفه في ضروب الشعر كان مقصّراً في الهجاء ، وذكروا أن السبب في قلة بضاعته في هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا بإبنه ابي الغوث وقال له : اجمع كل شيء قلته في الهجاء ففعل فأمره باحراقه ثم قال له : يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي وكافئت به قبيحاً فعل بي وقد انقضى أربي

في ذاك وإن بقي روي وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لي فيه .

وقد بقي من هجائه قصائد وأبيات لا تشاكل طبعه ولا تليق بمذهبه وتنبيء بركاكتها وغثاثة ألفاظها كما قال صاحب الأغاني ، وما يعرف له هجاء جيد إلا قصيدتين إحداهما في ابن ابي قماش والثانية في يعقوب بن ابي الفرج .

وممن أغري بهجاء البحتري ابن الرومي فقد قال فيه :

والفتى البحتريُّ يسرق ماقا — ل ابن أوسٍ في المدح والتشبيبِ
كل بيتٍ له يجوِّد معنا — ه فمعناه لابن أوسٍ حبيب

وقال ايضاً :

قبحاً لأشياء يأتي البحتريُّ بها — من شعره الغثِّ بعد الكدِّ والتعبِ
وقد يجيء بخاطيٍ فالنحاس له — وللأوائل ما فيه من الذهب
ما إن تزال تراه لابساً حللاً — أسلاب قومٍ مضوا في سالف الحقب
يعيب شعري وما زالت بصيرته — عمياء عن كل نورٍ ساطع اللهب
الحظُّ أعمى ولولا ذاك لم تره — للبحتريِّ بلا عقلٍ ولا حسب

قال صاحب العمـدة : وهجا ابن الرومي البحتري — وابن

الرومي من علت — فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط :

شاعرٌ لا أهابه نبحتني كلابُهُ
إن من لا أعزُّه لعزيزٌ جوابه

وهجاه ابو العنبس الصيمري بحضرة المتوكل بقصيدة بذيئة الألفاظ سخيفة عارض بها قصيدة البحتري التي يمدح بها المتوكل والتي أولها :

عن أيِّ ثغرٍ تبتسمْ وبأيِّ طرف تحتكمْ

فغضب البحتري وخرج وقال لبعض أصحابه قد ضاع العلم وهلك الأدب ، وأراد أن يعود الى منبج بغير إذن لولا ان استبقاه الفتح ابن خاقان ، ولكنه لم يجب ابا العنبس الصيمري اطّراحاً واحتقاراً له .

***

أما أخذه بعض معاني ابي تمّام فذلك مالا يمكن دفعه ولولاه لما نُعي عليه في شعره عيب ، واعتذر عنه الآمدي بقوله : « إن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساويء الشعراء وخاصة المتأخّرين إذ كان هذا باباً ماتعرى منه متقدِّم ولا متأخّرِ »

واستقصاء ما أخذه من ابي تمام لا يمكن في هذا البحث فانذكر قليلاً منه :

قال ابو تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها فتركب من شوقٍ إلى كل راكبِ

فقال البحتري :

ولو ان مشتاقاً تكلّف غير ما في وسعه لمشى إليك المنبرُ

وقال ابو تمام :

مازال وسواسي لعقلي خادعاً حتى رجا مطراً وليس سحابُ

فقال البحتري :

وعجيبٌ أن الغيوم يرجّيـ ـهن من لا يرى مكان الغيوم

وقال ابو تمام :

وقد تألف العين الدجى وهو قيدها ويرجى شفاء السم والسم قاتلُ

فقال البحتري :

ويحسن دلّها والموت فيه وقد يستحسن السيف الصقيلُ

ومثل هذا كثير ومهما التمس أصحاب البحتري المعاذير له من ذلك كقولهم : « إن ما أخذه من ابي تمام يشترك الناس فيه وتجري طباع الشعراء عليه ولم يعتمد أخذه وإنما كان يطرق سمعه

فيلتبس بخاطره فيورده » فإنه غير بريء من هذه الزلة ، وهي وإن عمت بها البلوى بين الشعراء قديمهم وحديثهم فنصيب البحتري منها أكثر وسهمه أوفر . هذا المتنبي على جلالة قدره لم تكتب له العصمة منها فإنه استعار معاني كثير من الشعراء وإليك بعض ماعدا به على سرح شعر البحتري :

قال المتنبي :

في جحفل ستر العيون غباره ‏ ‏ ‏ وكأنما يبصرن بالآذان

أخذه من قول البحتري :

ومقدم الأذنين يحسب أنه ‏ ‏ ‏ بهما رأى الشخص الذي لا يأمن

وقال المتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ‏ ‏ ‏ المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ‏ ‏ ‏ فإنما نحن للأسياف كالخدم

أخذه من قول البحتري :

تعنو له وزراء الملك خاضعة ‏ ‏ ‏ وعادة السيف أن يستخدم القلما

وقال المتنبي :

وما شئت إلا أن أدل عواذلي ‏ ‏ ‏ على أن رأيي في هواك صواب

وأعلم قوماً خالفوني وشرقوا ‏ ‏ ‏ وغربت أني قد ظفرت وخابوا

أخذه من قول البحتري :

وأشهد أني في اختيارك دونهم   مؤدّىً إلى حظي ومتبعٌ رشدي

***

وقد بقي أن نعرض للمفاضلة بين ابي تمام وبين البحتري وخلاصة مايحتج به أصحاب ابي تمام : أنه انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه إماماً متبوعا حتى قيل هذا مذهب ابي تمام ، وأنه كان مشهودا له بالعلم والشعر والرواية وأن العلم في شعره أظهر ، وأنه أتى في شعره بمعانٍ فلسفية ، وأن إحسانه انتشر في الآفاق وسارت به الركبان وتمثّل به المتمثل وتأدّب بحفظه وإنشاده المتأدِّب ، وأنه لايُدفع عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب والاستنباط لها ، وأن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة .

وخلاصة مايحتج به أصحاب البحتري : أن شعره شديد الاستواء وأنه لا يسقط ولايسفسف ، وأنه مافارق عمود الشعر وطريقته المعهودة مع مافي شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة التي يفخر بها أصحاب ابي تمام ، وأنه انفرد بحسن العبارة وحلاوة الألفاظ وصحة المعاني ، وكان يتعمد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقرِّبه

من الفهم إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها ، وأن معانيه مع جودة نظمه واستواء نسجه تصح بالنقد وتخلص على السبك ، وأن ما أخذه من معاني ابي تمام هي معان مشتركة لايختص بها شاعر دون آخر ، والبارع من معانيه والفاخر من كلامه ليس فيه على كثرته حرف واحد مما أخذه من ابي تمام .

وخلاصة القول أنك إن كنت ممن يميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فابو تمام عندك أشعر لامحالة .

وإن كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق وقرب المآتي وانكشاف المعاني فالبحتري أشعر عندك ضرورة .

والذي نراه أنهما مختلفان لامتساويان ، شعر ابي تمام مصنوع وشعر البحتري مطبوع ، والمفاضلة بينهما كالمفاضلة بين من يجيد الضرب على العود وبين من خلقه الله حسن الصوت ، ولقد انتهت الرئاسة إليهما ، وهما هما ، سقى الله عهدهما ؟